

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٧٧٧

ابن سيّد الناس ولأبيه

دراسه وتحليل

رسالة ماجستير

مقدمه إلى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)
لنيل درجة التخصّص (الماجستير) في الأدب والنقد

٢٧٢٣

إعداد

٧٧٧

الأمين منوف على عبد الكريم



إشراف

الأستاذ الدكتور

أحمد الشرباصي

” بسم الله الرحمن الرحيم ”

مقدمة :

- ١ - أردت بهذه الرسالة المتواضعة أن أقدم دراسة موجزة عن عالم جليل ، ومؤرخ ضليح ، وأديب رقيق ، ألا وهو :
أبو الفتح ابن سيد الناس اليممرى اليممرى الحافظ صاحب كتاب
عيون الأثر في فنون المخازي والشماثل والسير وكتاب منح المدح ، فسي
ذكر من مدح النبي صلى الله عليه وسلم أو رثاه من صحبه الكرام ، وكتاب
بشرى اللبيب بذكرى الحبيب ، وهو كتاب يحتوى على قصائد نبوية
من تأليف العالم الأديب ابن سيد الناس .
- ٢ - والذي حملنى على دراسة ابن سيد الناس وأدبه مع أنه ليس ممن اشتهر
بالأدب اشتهاره كحافظ ومؤرخ ، هو ما وجدته في كتبه المخطوطة
- بشرى اللبيب - ومنح المدح ، والمقامات العلية ، من هادة أدبية
لم تجد الدراسة والتحليل ، ولم تجد الطريق الى الطبع والنشر
حتى تأخذ مكانها في رفوف المكتبة العربية وتضيف الى أدب لغتنا
العربية الخالد حتى انتاجا مقدرًا جادت به عبقرية أحد أبنائها المرهومين
وهو أبو الفتح .
- ٣ - ولا أكتم سرا اذا قلت أننى أردت بهذه الدراسة أيضا أن تكون تمهيدا
وتوطئة لدراسة متأنية في المستقبل ان شاء الله أتوم خلالها بتحقيق
لاحدى هذه المخطوطات .
وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

:: الباب الاول ::

عصره وحياته

الفصل الاول :

عصره السياسى

اذا أردنا بحث عصر ابن سيد الناس من الناحية السياسية فلا بد لنا من تحديد تلك المدة زمانا ومكانا ، ومعرفة من عاشوا فيها من الحكام والسلاطين وكان معاصرا لهم ، ومعرفة كيفية حكمهم ، ومجرى الحياة والاحداث فى أيامهم ، وهذا يقهنا أن نتعرض تاريخيا للشخصيات التى حكمت فى تلك المدة وما لقيت فى سبيل ذلك من متاعب وما حققت من أهداف .

وللخوض فى كل هذا نحدد عصر ابن سيد الناس فنقول :
لقد ولد العالم ، والمؤرخ ، والاديب محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن سيد الناس اليمى بالقبلى بالقاهرة سنة ٦٧١ هـ وهو من أصل اشبيلية ، وتوفى بها أيضا سنة ٧٣٤ هـ ودفن بالقرافة بجوار ابن أبى جمره .

وهذا التحديد يقع فى العصر المملوكى الذى استمر حوالى ثلاثة

سنوات .

ولمَّا تشعبت بين الطرق سوف أحصر حديثى فى العصر المملوكى من منتصف القرن السابع عشر الى منتصف القرن الثامن عشر لستوفى القول عن حياته وحياته أباه ومن جاءوا بعده بقليل ممن تأثروا به .

فى سنة ٦٤٨ هـ والقرن السابع الهجرى يوشك على نهاية نصفه الاول — انتهت فى مصر الدولة الأيوبية وبدأت دولة المماليك ، وأول من اعتلى عرشها

شجرة الدر جارية الملك الصالح نجم الدين السلطان الايوبى ، وقد كانت زوجة له ثم تولت السلطة بعد موته ، وتزوجت بأحد أمراء الماليك وهو عز الدين أيبك *

وباستيلاء شجرة الدر على السلطة انتهت دولة الايوبيين وقامت دولة الماليك *

وقد خطب لشجرة الدر على المنابر، وتمكنت بدهائها أن تحكم مدة قصيرة ، وواجهت معارضة شديدة من أمرائها وخاصة عندما استفزهم الخليفة العباسى (١) الذى لم يقبل تولى امرأة شئون مصرفيحت اليهم برسالة جاء فيها ((كيف تولون عليكم امرأة اذا لم يكن بينكم رجال بعثنا إليكم بواحد من عندنا)) *

وبالرغم من الصعاب والمقبات التى واجهت شجرة الدر فقد حققت نجاحا مع قصر مدتها *

ومن هنا قامت دولة الماليك فى مصر وعاشت فى تلك المدة *

وبالوقوف على مدة حكم الماليك نجدها على دولتين الدولة الاولى هى المسماة بالمماليك البحرية ، وقد بدأت باستيلاء شجرة الدر على السلطة سنة ٦٤٨ هـ وانتهت بموت السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى سنة ٧٨٤ هـ وقامت الدولة الثانية بتولى السلطات الظاهر يرتوق ، وانتهت بآخر سلاطينهم *

والدولة الاولى هى التى تعيننا لان مدتها هى المدة التى عاش فيها

(٥) المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد - التاريخ الاسلامى على حسن ص ٤٦٤ - ٤٦٥ *

ومات ابن سيد الناس *

وتميزت الدولة الاولى بطول مدة حكم كثير من رجالها ما وفر لها
الاستقرار النسبي وحقت بعض الانتصارات الكبرى ضد العدوين الكبيرين
- الصليبيين والتتار *

فيروى أن السلطان قتلز قد هزم التتار في وقعة فاصلة بعين جالسوت
سنة ٦٥٩ هـ ، وهزمهم كذلك السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ ، كما
صفى سلاطينها تباعا جيوب الصليبيين الباقية في الشرق وأخربها الاستيلاء
على عكا سنة ٦٩٠ هـ *

والسلطان الظاهر بيبرس - ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ من أقوى سلاطين
الدولة المملوكية الاولى ، وقد دام ملكه طويلا بالنسبة لغيره ، وفي اثناء مدة
حكمه قام بحملات كثيرة ضد التتار والصليبيين في الشام والعراق وغيرها وفي
الجنوب قام بحملات ضد مملكة النوبة المسيحية ، وقد أثرت هذه الحملات
وكان من نتائجها كسر الموجات التتارية وتصفية بقايا الصليبية وتأمين الحدود
الجنوبية لمصر واستعادة النفوذ على بلاد النوبة من أيدي حكام مملكة النوبة
المسيحية *

ويرجع للظاهر بيبرس مضافا إلى هذه الحملات الفضل في تقوية الجيوش
المصرية وقيامها بتلك الواجبات الكبيرة *

وهذا ما أثبتته ابن شاكر حيث قال :

" وكانت الحساكر في الديار المصرية أيام غيره عشرة آلاف فضاعفها
أربعة أضعاف " (١) ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٠ *

وتسجيلا لكل هذا مدح الشعراء السلطان الظاهر بيبرس بشجاعته
وانتصاراته وعبروا بذلك عن إعجاب الجماهير وعن مشاعرهم التي ملئت بالسرور
والبهجة •

واستمر الظاهر بيبرس في تدعيم القوى العسكرية لدولته والوقوف فسي
وجه الأعداء وإرغامهم على الفرار أو الاستسلام •

والى جانب ذلك يذكر عن السلطان بيبرس أنه كان مهتما بالتمسك
بأوامر الدين ومراعاة حرمة ومحاربة البدع والمفاسد وتطبيق الحدود والتشدد
في ذلك إلى درجة الاضرار بالناس في بعض الأحيان •

قال ابن الوردي في تاريخه :

" كان السلطان الظاهر على قدر من الديانة وكان ملازما للخمس فسي
أوقاتها وألزم حاشيته بها • وحكى أنه ما شرب خمرًا قط ، ومنع كل منكر وكان
يحصل من المنكر كل يوم ألف دينار فأبطله ولما حج رأى بياب الكعبة محروبا
يأخذ بأيدي ضعفاء الرعية ليصدوا ، عمل الستور للكعبة والحجـرة
النبوية " (١) •

وأعقب السلطان بيبرس خلفاؤه من أبنائه الصغار الذين لم يحمروا فسي
السلطة طويلا •

وسرعان ما انتقلت هذه السلطة من بيته إلى المنصور قلاوون مؤسس
الأُسرة القلاوونية ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ •

ويحكى أن المنصور قلاوون كان أعجيبا لا يفهم اللغة العربية ، لهذا
تصر عليه فهم الكلام العربي الفصيح من شعرونثر ، واتخذ لذلك الكتاب

(١) تاريخ مصر لابن الوردي ج ٣ ص ٣٣٥ •

والمترجمين ، لكنه مع ذلك قام بأعمال عسكرية وإصلاحية كبيرة في مصر والشام
فشن غارات ناجحة على الصليبيين وصفى بعض جيوبهم بساحل الشام ، ووقف
أمام هجمات التتار المتكررة *

ومن مشاهير الأسرة القلاوونية السلطان الأشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ
الذي حقق انتصارات عسكرية عظيمة أهمها فتح عكا والاستيلاء عليها ، وبهذا
العمل الجري قضى نهائيا على الصليبيين واقتلع جذورهم التي تشبثت بالأرض
الشرقية الإسلامية مدة من الزمن ، وقد فر عدد كبير منهم بعد سقوط المدينة
في السفن التي دفعت بها الممالك الأوربية لتعاون على الحصار في البحر *

وعادت عكا عربية بعد أن كانت مختصة لأكثر من مائة عام *

ورجع الأشرف خليل إلى القاهرة بعد هذا النصر المبين وأعلام النصر
عالية مرفرفة في سماءه ، وسجل الشعراء هذا النصر المؤزر *

قال شهاب الدين محمود : (١)

الحمد لله أدلت دولة الصليب

وعز بالترك دين المصطفى المرسي

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت

نؤياه في النوم لاستحيت من الطالب

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها

في البحر للشرك فيها كف مقتصب

لم يبق من بعدها للكفر مذخرت

في البر والبحر ما ينجي سوى المهرب

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠٥ *

وبالاستيلاء على عكا انتهى آخر سطر في القضية الدامية قضية استيلاء الصليبيين على أوطان الأمم والشعوب بالقوة وتشريدهم في أبشع مأساة عرفها التاريخ .

وإذا كان الأشرف خليل من مشاهير هذه الأسرة فإنَّ الناصر محمد - ٦٩٣ هـ - يعد من أكبر سلاطين هذه الأسرة على الإطلاق وأطولهم عصرا وأكثرهم استقرارا وازدهارا فقد بلغت سنوات حكمه في الممدد الثلاث التي تولى فيها السلطنة نصف قرن تقريبا .

في نهاية العام التاسع من القرن الثامن استقر في ملكه وكان قد بلغ من الشباب والحنكة مبلغا جعله أهلا للحفاظ على ملكه .

وحفلت مدة ملكه بأحداث جسام ، منها استيلاء التتار على دمشق بعد هزيمته في وقعة وادي الخازندار سنة ٦٩٩ هـ أمام غازان ، وقد اضطرب هو وفرقتة إلى التوجه إلى مصر ، وقطعت الخطبة باسمه في دمشق بعد هذه الهزيمة ثم أعيدت بعد عودته مرة ثانية واستعادة دمشق إلى سلطانه .

ودارت مكاتبات بين الناصر محمد وغازان غضب على أثرها غازان وأعد جيشا لغزو الشام من جديد واستعد له الناصر محمد والتقى الجمعان عند مرج الصفر سنة ٧٠١ هـ وكتب للناصر النصر في هذه المعركة ولم تضرب شمس ذلك اليوم إلا ورايات الناصر المنتصرة ترفرف على أبواب دمشق ثم تدخل القاهرة ويلقاها الناس بالابتهاج والسرور ، وفي عهده تم فتح جزيرة أرواد من بلاد الأفرنج سنة ٧٠٢ هـ ثم كانت وقعة شقحب في هذه السنة بينه وبين التتار وقد كسب هذه المعركة وكان النصر له ولجيشه .

وفي داخل البلاد أخذ بعض الثورات منها ثورات الصريان بصعيد

وقد مهدت هذه المدة الطويلة في الاستقرار الطريق أمامه لكثير من الأعمال الداخلية ، وشعر الناس بالهدوء والراحة بعد فترات الاضطراب والغلاء والغرض التي سادت من قبل .

وصف ابن حجر مرحلة الهدوء والإزدهار التي سادت معظم عصر الناصر محمد فقال :

" ولم ير أحد مثل سعادة ملكه وعدم حركة الأعادي عليه برأ وبحراً مع طول المدة ، فنذ وقعت شقح إلى أن مات لم يخرج عليه أحد " (١) .

ويحكى أنه كان شجاعاً مهيباً ذا دهاء ، ومطاعاً وذا مقدرة على إدارة ملكه العريض عارفاً بسياسة الدولة ، ولا يقر في المناصب إلا من هو أهل لها .

توفي الناصر سنة ٧٤١ هـ وتولى السلطنة من بعده عدد من أبنائه . وأهم من كان منهم وأطولهم حكماً السلطان الناصر حسن الذي بلغت مدة حكمه في فترتين إحدى عشر عاماً ، ويروى أنه كان ظالماً للرعية متعسفاً في حكمه .

وعند هذا الحد انتهت مراحل الجولة الأولى من الصراع بين التتار ودولة المماليك الأولى واستمر السلام قائماً خلال عصر الناصر محمد وخلفائه من بعده ، إلى أن جاء الطوفان عاتياً مدمواً من الشرق بقيادة تيمورلنك في عهد السلطان برقوق في الدولة المملوكية الثانية .

وفي فترة الهدوء والاستقرار التي سادت عهد السلطان الناصر محمد وصلت إلى مصر وفود كثيرة من إفريقيا وغيرها من بلاد الشرق والغرب تحمل الرسائل والمكاتبات من ملوك وولاة تلك البلاد تخطب ود السلطان وتطلب عونه ومساعدته . نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر وقد صاحب دنغلا " آيى " الذي جاء يحمل هدية عظيمة تحتوي على رقيق ودهن وأبقار ونمور وشب وسياج ، وطلب عون

(١) ابن حجر الدرر الكامنة ج ٣ ص ٨٧ .

السلطان ، فجرد معهم عسكرياً يتقدمهم الأمير " طقشبا " حاكم قومن (١) .

وهذه الوفود تدل على مدى الثقة والسمعة الطيبة التي كان قد ظفر بها ملوك وسلاطين هذه الدولة مما حفز الأمم المجاورة ممثلة في ملوكها ورؤسائها أن تخطب ودهم وتطلب خلق علاقات خارجية معهم .

وهذه الثقة الخارجية التي تمتع بها سلاطين هذه الفترة في العصر الملوكي الأول لا تنفي أن هناك صراعاً داخلياً على السلطة يشب بين الحين والآخر فقد اقتصت دولة الماليك بأنظمة وعلاقات تخطف عن غيرها ، وأهم ما يبدو في توليتهم السلطة هو القوة لا العدل ، فالقوة أساس الملك عندهم ، ومتى ملك أحدهم القوة استطاع أن يثب إلى الملك ويقص السلطان القائم ، ويحد ذلك يستطيع أن يكسب الشرعية ببهجة الخليفة وموافقة أهل الحل والعقد من الأمراء وكبار رجال الدين من الفقهاء والقضاة وغيرهم ، ويبذل السلطان في سبيل ذلك المال والسيف كل في موضعه ، ومتى تولى أحدهم السلطة أصبح في وسعه أن يبطش بأي إنسان حتى ولو كان نائب السلطنة أو أمير المسكر أو الخليفة أو قاضي القضاة أو أحد أخص الناس به وأقربهم إليه متى اشم منه رايحة تمرد أو خشى على ملكه منه .

والقصص التي تدل على ذلك كثيرة ، منها قصة الناصر محمد مع نائبه الأمير تنكز والي الشام فقد تربه إليه ورفع من شأنه وتزوج من ابنته ، لكنه عاد بعد هذا كله وبطش به وسجنه حتى الموت لخشيته على نفسه من قوته ونفوذه .

وكانت وظائف الدولة الكبرى مجالاً للصراع بين من يستحق ومن لا يستحق ويستطيع من لا يستحق أن يتسلل إلى الوظيفة بالمال والخداع والتقرب من السلطان ورجاله ويقدم في سبيل ذلك الرشاوي السخية ، وبهذه الطريقة قالوا إن عملاً

(١) السلوك للمقريزي من ٧٥٠ - ٧٥٢ .

الدين بن الأثير استطاع أن يصل إلى وظيفة كتابة السربوشة السلطان الناصر نفسه ، وذلك أنه ظل يلاحقه بالهدايا من الحلوى والذهب ليقبفه ويعـزل كاتبه شرف الدين بن فضل الله العمري ، قال ابن حجر :

” فبعث إليه السلطان بقوله له : يا علاء الدين نحن ما نصرف شرف الدين بن فضل الله وإن صرفناه ما نولى إلا علاء الدين بن الأثير فوفر عليك ذهبك بنفسك . ” (١)

واستطاع بعد هذا علاء الدين أن يتحايـل لنقل ابن فضل إلى دمشق ويتولى هو منصبه في القاهرة .

وقد شاعت الرشاوى في تلك المدة وأثبتها كثير من المؤرخين ، يقول ابن تيمرى بردى :

” كان في دولة الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ديوان يصرف ديوان البذل وشاع ذلك في الأقطار وصار من له حاجة يأتي إلى صاحب الديوان المذكور ويبدل فيما يرومه من الوظائف ” (٢) . واستطاع قلاح بسيط في عهد الناصر محمد أن يصل إلى كرسى الوزارة .

وكرت المفاسد وأنهم بعض السلاطين بحاباتهم للأقباط لأنهم يجمعون لهم المال ويحفظونه على حساب الشعب وأتوا ، فكثر الثورات ومن أشهر ثورات الأعراب ما قام في سنة ٦٨٠ هـ (٣) من هياج وقاتل بين عرب جهينة ورفاعة في صحراء عيذاب في جنوب مصر وشرق السودان وقتل فيها عدد كبير ، وكان صاحب سواك مسيطرًا على تلك الجهات فكتب إليه السلطان أن يوفق بين الفريقين .

(١) الدرر الكامنة لابن حجر ج ٣ ص ٩٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٦٣ .
(٣) السلوك ج ١ ص ٧٠ .



وفي سنة ٧٠١ هـ اضطرب الصعيد بثورات العربان قال المقرئ

” وفيها كثر فساد العربان بالوجه القبلي وتعدى سرهم في قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعاش بأسيوط ومنظوط فرائض جيوها ، - واستخفوا بالولاية ومنعوا الخراج وتسموا بأسماء الأمراء وجعلوا لهم كبيرين أحدهما سموه بيبيرس والآخر سلا ، ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون بأيديهم ” (١) ، وهذا ما أثبتته ابن تغري بدي أيضا ، قال :

” وكان السلطان قد أمر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلي لكثرة الفساد من العربان ” (٢) .

وفي تاريخ ابن إياس ” أنهم تسموا بأسماء الأمراء ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون بأيديهم فأحضر السلطان القضاة والفقهاء واستفتاهم في قتالهم فأفتوا بجواز ذلك ” (٣) .

وفي الشام ضيق نائبها سنة ٧١١ هـ على الناس بدمشق وقرر على الأملاك أموالا تؤخذ كل شهر ، واجتمع القضاة والخطيب والعمامة وحملوا المصاحف ووقفوا بسوق الخيل فلما رأهم قال لهم : انقضى الشغل فامتعوا فأشار عليهم الحاجب بعصا معه فقروا فهول الذي يحمل المصحف فسقط منه فرجوا الحاجب بالحجارة ، وقد انتقم النائب من القضاة فجاء بالقاضي ابن صرصرى وبالخطيب وأخرق بهم ” (٤) .

وتعددت الثورات على الماليك حتى زال ملكهم واستراح الناس من ظلمهم واستثنار بعضهم بالخير والتمتة وترك الفقر والجوع والمرض يفتك بالناس .

-
- (١) السلوك ج ١ ص ٩٣٠ .
 - (٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٠ .
 - (٣) تاريخ ابن إياس ص ١٠٠ .
 - (٤) المرجع السابق ١٠٣ .

على أن الشرَّ بعضه أهون من بعض * فقد يتحمل الناس الجوع والفقير
في مقابل الاحتفاظ بدينهم وعقيدتهم وأعراضهم محمية من الغزاة المعتدين من تتر
وصليبيين *

فقد كانت جيوش سلاطين المماليك قوة ضاربة أخافت الصليبيين والتتر
على السواء وخاصة أنهم كانوا يرفعون راية الإسلام ويستظلون بظله الظليل *

في هذا الجو السياسي المضطرب المليء بالمشائعات عاش العالم المورخ
الأديب الشيخ فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس ، وقد استطاع بعلمه الخبير
وأدبه الرفيع وأخلاقه العالية التي أكسبته المحبة والتقدير أن يعيش عزيزا مكرما
محبوبا عند الخاص والعام حاكما ومحكومين على السواء ، ويستمر في نشر رسالة
الحلم والأدب ومختلف فنون المعرفة ، ويحجى عليه العزق في سهولة ويسر من
جهات متعددة - سلاطين وأمراء *

وهذا ما أثبتته الصفدي حين قال :

" ما رأيت أحدا له مثل حظه ما رآه أحدٌ إلا أحبه كان علم الدين الداوداري
يحبوه ويلزمه كثيرا ودخل به إلى المنصور لا حين فترتبه في جملة الموقمين ، فرأى
الشيخ الملازمة صعبة فسأل الإغماء ، فقال اجعلوا معلومه راتبا فلم يزل يتناوله
إلى أن مات ، وكان الكمالى ينام معه وكان كريم الدين يعيل إليه كثيرا وكان أرغون
النائب يتعصب له .. إلى أن قال إن له نزلًا بالديار المصرية وراتبا بصفد " (١) *

وكان من العلماء الأجلاء في عصره حتى أن سلاطين المماليك كانوا
يعفونه عن أداء بعض المراسيم التي كان يؤديها عامة الناس والأمراء فسرى
دخولهم على السلطان مثل تقبيل الأرض أو الإيمساء إلى الأرض ،
والإنحناء تحية وإجلالا للسلطان *

قال الصفدي :

« حكى لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس أنه لما دخل على
السلطان لم يدعه يبوس الأرض ، وقال :
« أهل العلم منزّهون عن هذا وأجلسه عنده » (١)

* * *

(١) السلوك ٣/٢٨٢ خطبة يدار الكتب *

:: الفصل الثاني ::

عصره الإجتماعى

عند بحث الحالة الإجتماعية فى عصر ابن سيد الناس يلزمننا أن نتصرف على سير الحياة ومشكلات المجتمع من الناحية المعيشية ، والسياسية ، والإجتماعية ، وللحديث عن ذلك فى عصر ابن سيد الناس - عصر الماليك - نستعين بتقسيم طبقات المجتمع الذى أورده المقرئ فى كتابه بهذا الشأن ، والذى صور فيه حظ كل طبقة من السعادة أو الشقاء ، ومن سعة العيش ، أو ضيقه ، يقول المقرئ :

أعلم حرسك الله بعينه التى لا تام أن الناس ياقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية والتسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجاره ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوتسة ، والقسم الرابع أهل النطح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الطقة ونحوهم والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السوءة آل الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم (١) .

وبنظرة فاحصة إلى هذا التقسيم نجد أن فى مقدمة الطبقات أهل الدولة ، وأهل الدولة الذين وضعهم المقرئ على رأس الطبقات الإجتماعية السبع هم سلاطين الماليك والأمرء وأتباعهم من الجنود ، ويدخل فى ذلك القضاة وكبراء الدولة .

وقد فاز أهل الطبقة الأولى بكل شىء وشاركهم التجار وأثرياء الناس ،

ولم يدعوا لخيرهم من سائر الناس سوى ما يتصدقون به عليهم أو ما يكسبونه بمسرق
جيبينهم .

وظاهر الماليك على اختلاف طبقاتهم عيش النعيم والرفاهية في قصور
تجمع كل أسباب الترف يزخرون سقوفها وحيطانها بالذهب (١) .

وقد اهتموا بتسميتها وتنظيمها وحسن إدارتها ووظفوا لها من يشرف على
ذلك كله .

وتضم الدور السلطانية منازل الحرم وبها زوجات السلطان وسراياه وقيناته
ومجالسه الخاصة التي لا يحضرها إلا هو وخاصته .

وتقدم حريم السلطان وتقوم عليهن قهومانه لها سلطات كبيرة وكثيرة
وقد اشتهرت في هذا الميدان من النساء سيدة يقال لها : السيدة " حدق " .

ويحكى أن الناصر قد جعل لها أمور نساءه فتحكمت في داره تحكما
عظيما حتى أصبحت لا يقال لها إلا " الست حدق " (٢) .

وتضم الماليك باللباس الفاخر والرياش الناعم من الحرير والديباج
الموشى بالذهب ، وكان السلطان يرتدى في مواعيد الرسمية واستقبالاته قباء
أحمر، ويركب في الموكب فرسا أصيلا مؤدبه معلمة على المشى على القوس لا تحيد
عنه ويبدو في موكبه حسن الصورة مهيب الطلعة عليه بهاء الملكة والرفيعة
والخز فوق رأسه يحمله بعض الأمراء والأكابر (٣) .

يقول ابن كثير يصف موكب بعض السلاطين :

(١) حديد النعم ومبيد النعم للسبكي ص ٦٩ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤٤ .

• دخل قلعة دمشق وعليه من أنواع اللباس قبا ز بخارى والقبة الطير
يحملها على رأسه الأمير سيف الدين الذي كان تفتاب طرابلس والأمراء مشاة
بين يديه والبسط تحت قدم فرسه ، والبشائر تصرب خلفه * (١) .

وفي سبيل اقتناء الثروة الهائلة ارتكب المماليك المظالم وتعسفوا أيضا
تعسف و نكلوا بالناس من فلاحين وأعيان وتجار تكيلا عظيما ، وكان الجند يتولون
الفلاحين بنزوب المصنف لجمع المحاصيل .

وقد علت أصوات خيرة الناس المشفقين على المجتمع بالشكوى ، ومن بسين
هؤلاء الإمام السبكي ، وما قاله في هذا الشأن :

• فمن حق الله سبحانه وتعالى على الأجناد شكر النعمة باللفظ بالفلاحين
فلو شاء تعالى لقلب الجندى فلاحا والفلاح جنديا فإذا كان لا يشكر نعمة الله
تعالى على أن رفعه على درجة الفلاح فلا أقبل من أن يكفى الفلاح شمره
وظلمه * (٢) .

وأعادوا السخرة فسخرها الناس في أعمال البناء والعمارة وعمل الجسور
وشق الطرق والترع وما إليها .

واشتدت هذه السخرة في عهد السلطان الناصر محمد والناصر حسن

وقد أثبت المقريزي ذلك في حوادث سنة ٧١١ هـ ، قال :

• وفيها كثرة تسخير الناس للعمل في العمائر السلطانية بالقلعة وقبض عليهم
من بين القصرين وهم نيام ، ومن أبواب الجوامع عند خروجهم من صلاة الصبح فابتلى
الناس من ذلك ببلاء عظيم وكثرت الغاشية ووقع الإجهاد في العمل
واشتد الإستحاث فيه حتى أن الرجل كان يخر إلى الأرض وهو يعمل ليجزه عن
الحركة فتقدم عليه رفته الرمال فيعوت من ساعته واتفق هذا لخلائق كثيرة جدا * (٣) .

(١) نفس المصدر ج ١٤ ص ٣٨٧ .

(٢) محيد النعم ص ٧٤ .

(٣) السلوك ج ٣ ص ٤٤٦ - ٤٥٠ قسم ٣ .

وكانت قسوة المالك الطابع المميز لحكمهم ، تسوا على الرعية وعلسى
أنفسهم فى بعض الأحيان ، لهذا كثر القتل وعم التآمر خاصة فى فترات الإضطراب
والقلق ، وسلط الله بعضهم على بعض ، وابتدعوا فى التآمر والتعذيب أنواعا
متعددة ، ومن بين هذه الأنواع استخدام السم للتخلص من المناهضين ، فكان
بعضهم يدمس السم فى الطعام على أيدي الجوارى والخلمان مقابل قدر من المال
بعد إنجاز المهمة .

ومن اشتهر بالقسوة منهم - أرغون شاه ناعب دمشق ، فقد روى ابن
الوردى فى تاريخه أنه كان شديد القسوة مقدما على سفك الدماء قتل بحطب
ووسط وسمر وقطع بدويا سبعة قطع بحضرتة بمجرد الظن ، وقال فيه ابن
السورى :

* عقلت طرفك حتى * * أظهرت للناس عقلك
لو كان دهر يولسى * * على بنى الناس مثلك (١)

وكان لاستاذنا الجليل ابن سيد الناس صلة وعلاقة بهذا النائب المسمى
" أرغون " وقد تكون هذه العلاقة من باب التقية ودرء الشر عن النفس
والناس ما أمكن ذلك .

فقد ذكر المؤرخون أنه كان يحب ابن سيد الناس ويتعصب له ، وقد ذكر
ذلك صاحب الدرر الكامنة على لسان الصفدى . قال :

" ما رأيت أحدا له مثل حظه ما رآه أحد إلا أحبه " . . . إلى أن قال :

" وكان أرغون النائب يتعصب له " (٢) .

وانخذ سلاطين المالك أعوانا لهم وأتباعا وقضاة ووزرا وكتابا

(١) نوات الوفيات ج ٣ ص ٨ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٣ .

من أبناء مصر والشام •

نذكر منهم على سبيل المثال - كريم الدين بن عبد الكريم بن هبة الله بن
السديد المصري وكيل السلطان الناصر محمد ومدير دولته ، فقد أحبه السلطان
حتى أسلم إليه كل خزائنه •

قال ابن حجر :

” ومن فخامته أنه كان يركب في عدة من ماليك نحو السبعين كلهم
يكبايش عمل الدار وطرز ذهب والأمرء تركب في خدمته ، وبلغ من عظم
قدره أنه مرض مرة فلما عوفي دخل مصر إلى دار الحقد فزينت له البلدة
وكان عدد الشمع ألفاً وستمئة شمعة يوركب حراقة فلاقاه التجار الكارمية ونشروا
عليه الذهب والفضة فتأهبنها النواتية ، ولما صدر أمر السلطان بنقل
موجوده إلى القلعة على بقال كان أولها بباب بيته وآخرها بباب القلعة وحمل
من على الأتفاض مائة وثمانون قضا ثلاثة أيام في كل يوم ثلاث دفعات سوى ما كان
ينقل مع الخدام من الأشياء الفاخرة التي لا يؤمن عليها غيرهم ، ووجد له من النقد
خاصة نحو من ثمانين ألف قنطار ، ومن الأعسال ثلاثة وخمسون الفمطر ، وكان
عدد الصناديق التي فيها المطر من البان والصود والعنبر والمسك واحداً
وأربعين صندوقاً * (١)

وكريم الدين هذا هو أيضاً من خلصاء وأصدقاء ابن سيد الناس ، وكان

يميل إليه كثيراً •

قال صاحب الدرر الكامنة :

” وكان كريم الدين يميل إليه كثيراً * (٢) •

(١) فوات الوفيات ج ٣ ص ٨ •

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٣ •

هذه هي حال الدولة وكبرائها من الوزراء والقضاة ونواب السلطان ، ترف ، وبذخ ، ومتعة ، وكانوا يتقاضون رواتبهم مشاهرة وكان راتب الوزير يبلغ مائتين وخمسين دينارا كل شهر عدا المخصصات الأخرى ، ولبعضهم إقطاعات ، لهذا بلغوا حدًا فاحشًا من الترف والغنى .

وبهذا نكون قد أخذنا فكرة سريعة عن أعيان الطبقة الأولى كما تسمهم

المقريزي .

أما الطبقة الثانية وهم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة فهؤلاء كانوا يتشبهون بأصحاب الدولة والحكام ، في سكنى القصور والتمتع بملاذ العيش وطيبات الحياة ، وجرت بأيديهم الأموال وكانت تخدمهم الجوارى والخلمان .

والقسم الثالث هم الباعة ومتوسطوا الحال من التجار، وهؤلاء كانوا

يعانون من متاعب الحياة ومشكلاتها المتعددة ، ولا يخرجون من مشكلة إلا لتسلمهم إلى مشكلة أخرى ، وذلك لكثرة الكلف وتبع الولاة وجباة الضرائب لهم ، فأصبح أحدهم لا يرضى بالقليل من الربح لعلمه بكثرة النفقات والتبعات التي تنتظره ، ويلحق بهذا القسم أصحاب الصناعات الصغيرة والعطاسيون والكحالون ، وكانوا يقومون بدور الأطباء والصيدلة ، وكان الناس يغشون دكاكينهم لشراء الدواء والاستشفاء .

والقسم الرابع وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة والحرث . فحال هؤلاء كانت منتعشة ثم انتكسوا لكثرة ما فرض عليهم من الضرائب والأموال وقد يصل بهم الحسد إلى مصادرة أموالهم مضافا إلى ذلك شدة السنين وتوالي المحن وشح النيل .

وبرغم هذا كله قال المقريزي :

* إن فيهم من عظمت ثروته ، وفخمت نصيبته ، ونال ما أرى على مراده .

وزاد على ما أمله .

أما القسم الخامس من طبقات المجتمع وهم الفقهاء ، وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود ، والكثير من أجناد الحلقة ، ومن شايعهم من له عتار أو أجر جارٍ محكوم من السلطان أو غيره ، فهم من بين ميت أو مشته للموت لسوء ما حلَّ بهم .

ويصف المقرئى حالهم بعد توالى النكبات وسوء الحال الاقتصادية بعد عهد الناصر محمد فيقول :

فإنَّ أحدَهم أتمه مائة درهم مثلاً أنفق منها في ضرورياته ما يلزمه على قلة قيمة الدرهم في ذلك الوقت عما كان عليه فلحقهم من أجل ذلك القسلة والخصاصة وساءت أحوالهم (١) .

ويضم القسم السادس والسابع أرباب المهن الصغيرة والأجراء من عمال الصناعة والخدم وأصحاب المسكنة ممن لا يملكون شيئاً من المال ولا يشغلون وظيفة ولا يحسنون عملاً أو يمتنون مهنة .

وهؤلاء يعيشون عالة على غيرهم من أرباب الحرف والصناعات وأصحاب الثراء والأعيان وأصحاب الأرض ، يحصلون منهم على الأجر لقاء ما يقومون به من الخدمات ، ويجرى عليهم السلطان والأمراء وبعض الأغنياء الرزق الذي يحفظ عليهم أرواحهم في بعض ساعات الضيق والعسر .

وقد غلب على أهل القاهرة في تلك الفترة آجناس من الناس اختلطت دماؤهم ، كالأتراك والأكراد والجركس والروم والفرنجة ، وازداد التتار في هذه الفترة من حكم المالبيك في القاهرة زيادة واضحة لكثرة أسراهم من الحروب ورغبة الأسراء وسرارة القوم في التزوج من الثريات ، قال المقرئى :

" وكانوا صورا جميلة فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا في أولادهم من الذكور والإناث واتخذوا منهم عدة صيروها من جملة جندهم وتعشقوهم فكان بعضهم يستشهد من صاحبه من اختر به وجعله محل شهوته ، ثم ما نفع الأمراء من كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشاميه واستدعوا منهم طائفة كبيرة ، فتكاثر نسلهم في القاهرة واشتدت الرغبة من كافة فسى أولادهم على اختلاف الأهواء في الإناث والذكور " (١) .

وإذا تعرضنا لموقف المرأة بصفة خاصة في المجتمع المملوك فـأول ما نلاحظه أنها لم تكن في الوضع اللائق بها ، فالحجاب مضروب ومفروض على المرأة الحرة أما الجارية فإنها تجول في الأسواق سافرة ويفرض عليها قيود في اللباس والسلوك فقط ، وكانت بعض نساء الطبقات الفقيرة يشتغلن بالخزول والتطريز والزركاش بخيوط الفضة والذهب وظاهر بينهن مع ذلك كثيرات ممن اشتغلن بالملم وتهدرن للتدريس مثل زينب بنت مكى وزينب بنت الكمال - توفيت سنة ٧٤٠ هـ . وذكر ابن حجر أنها روت كثيرا وتراحم عليها الطلبة وقرأوا عليها الكتب الكبار " (٢) .

وكانت كثيرات منهن يحملن بالمخاني وضروب الملاهي كالرقص واحترنت فتيات منهن البغاء وخصص لهن أماكن في بعض الأحياء والمدن الكبرى فسى السلطنة كدمشق وغيرها .

وتمتقب بعض السلاطين أولئك النسوة من صاحبات المخاني والزواني وضايقوهن وإن تساهل آخرون مهن .

ففى دمشق أمر نائب السلطان " بيدمر " بأن لا تفتى امرأة لرجل

(١) السلوك ص ٨١٣ - ٨١٣ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٦٧ .

ولا رجل لئسا^١ وعلق ابن كثير على ذلك بقوله :

” وهذا في غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشاملة لنفسها ” (١) .

وفي هذا الشأن يقال إن الملك المعز آيبك التركمانى أمر ألا تخرج
في القاهرة امرأة من بيتها ولا يمشى الرجل بلا سراويل ، فعلق أبو الحسن
الجزار الشاعر المعروف في ذلك العهد على هذا التصرف الملكى بقوله :

حَنَّ الْمَلِكُ الْمَعَزُّ عَلَى الرَّعَايَا

وَأَبْسَهُمْ سَرَاوِيلَ الْفَتَوَةِ (٢)

وفي عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ نودى بالقاهرة ومصر أن المرأة
لا تتعم بالعمامة ولا تتزيا بزى الرجال ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة
أيام سلبت ما عليها من الكسوة . (٣)

ويبدو أن بدعة التزين بلبس الرجال شاعت بين النساء خلاعة وتهتكاً .
صدر مرسوم السلطان بمنعهن عن ذلك ، وفى زمان السلطان الناصر محمد
ويعد أن عم الناس الرخاء استخدم النساء بعض الأزياء والحلي .

قال ابن تخرى بردى :

” واستخدم النساء فى زمانه الطرحة ، كل طرحة بعشرة آلاف دينار
وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار ، والفرجيات بمثل ذلك واستجد النساء
فى زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والقباقيب
الذهب المرصعة والأزر الحرير وغير ذلك ” . (٤)

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٦٧ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٥٠٣ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٧٦ .

وفي سلطنة الناصر حسن نودي ألا تلبس النساء الأكمام الطوال العراض
ولا البرد الحرير ولا شئاً من اللباسات والثياب الثينة ولا الأقمشة
الضارة .

وقد شدد في ذلك في الديار المصرية حتى قيل إنهم أغرقوا بعض
النساء بسبب ذلك * (١) .

وقال ابن إياس :

* أبطل السلطان حسن ما أحدثه النساء من القمصان التي خرجت
في كبر أكمامها عن الحد ، وأبطل ما أخرجوه من الأزرق الحرير والأخفاف
الزرخش فاشبهوا المناداة في القاهرة بإبطال ذلك فرجعت النساء عن
ذلك * (٢) .

وذكر ابن كثير أن نائب السلطنة في دمشق أمر بأن ينادي في البلد
بأن النساء يمشين في تستر ويلبسن أزهرن إلى أسفل من سائر ثيابهن
ولا يظهرن زينة أبدا ، قال ابن كثير :

* فافتعلن ذلك ولله الحمد والمثنة * (٣) .

أما المواسم الدينية فمن أهمها في العصر المملوكي عند المسلمين
المولد النبوي الشريف ، وكان المماليك يهتمون به اهتماما عظيما ويصرفون فيه فسخ
بسخ .

ومن المناسبات الدينية التي اهتموا بها موالد الأولياء كمولد السيد -

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٣٣ .

(٢) تاريخ ابن إياس ١٩٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٨٠ .

البدوى بطنطا ومولد الشيخ الأنباى بانباة •

وصارت أوقات موالد الأولياء عند عامة الناس من جملة أوقات النزهة يتواعدون إليها ويتوجهون أفواجا ولا يقصدون زيارة الأضرحة والتبرك بها وإنما يقصدون اللهو والمرح والنزهة •

وبالمثل النصارى كانت لهم أعيادهم ومواسمهم الدينية ، وهى أيضا كانت مجالا للهو والنزهة والقصف والمرح •

ومن هذه الأعياد عيد النيروز وهو أول يوم فى السنة القبطية فى مصر • وبهذا اختلف عن نيروز الفرس الذى كان يحتفل به فى العراق •

وما يحمل فى ذلك اليوم - كما يرويه المؤرخون - أنه كان يجتمع السواد الأعظم من الناس الأسافل فيقفون على باب الأكابر من أعيان الدولة فيكتسب أمير النيروز وصولات بالجمل الثقال وكل من امتنع عن الإعطاء من الأكابر بهدلوه وسبوه سباً قبيحاً ، وكان العياق يقفون بالطرقات ويتهاشون بالماء ويتراجمون بالبيض ويقطعون على الناس الطريق ويمتنع الناس عن الخروج الى الأسواق فى ذلك اليوم ، وكل من ظفروا به فى الطرقات بهدلوه ولو كان أميراً أو من أعيان الناس •

وكان الناس فى ذلك اليوم يتجاهرون بشرب الخمر وكثرة الفسق فى أماكن التفرجات حتى يخرج ذلك عن الحد المعقول •

وكان يحمل فى هذا العيد إلى الأكابر من أعيان الأقباط الهدايا من المأكولات والمشروبات المختلفة ، كالعنب والتمر والخوخ والبطيخ وصحون الحلوى وغير ذلك من طيبات الأشياء •

ومن أعياد النصارى من الأقباط المصريين عيد الميلاد ويقال إنه موسم جليل فى مصر فى تلك العهود يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة

والتماثيل البديمة بأموال لا تحصى فلا يبقى من الناس أحد
أعلاه وأداناهم حتى يشتري من ذلك لأولاده وأهله ، ويعلقون منها
في الأسواق بالحوانيت عدداً كبيراً .

ومن أعيادهم أيضاً عيد الشهيد ، ويذكر ابن إياس أنه " كان
بكنيسة شبرا صندوق من الخشب مقفول بقل من حديد وبداخله أصبغ
أحد عباد النصارى يسمونه الشهيد ، وكان النصارى يتوارثونه من قديم
السنين ، فإذا كان ثامن شهر يشتم من السنة القبطية أخرجوا
ذلك الأصبغ من الصندوق وغسلوه في نهر النيل ، ويزعمون أن النيل
لا يزيد في كل سنة حتى يلقون فيه ذلك الأصبغ ، ويسمونه عيد الشهيد
ويكون ذلك اليوم عيد ترحل إليه سائر النصارى من جميع القرى وتخرج
عامة أهل مصر من غنى وصلوك وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل
بشبرا وفي الجزائر ، ولا يبقى من ولا مصرية ولا ماجن إلا خرج فس
ذلك اليوم " (١) .

وقد أجمل المقريزى أعياد أقباط مصر منذ الفاطميين فقال :

" ما رأيت قط أجمل من أيام النيروز والغطاس والميلاد والمهرجان
وعيد الشناعين وغير ذلك من أيام اللهو " (٢) .

وفشا في المجتمع في ذلك العهد مفاسد عدة منها شرب الخمر ،
وعلى الرغم من معاقبة الظاهر ببيروس لشاربيها وتكسيره لانيتها وتهديمه
لدورها في مصر والشام إلا أن الناس لم يتخلوا عنها تماما ، وبلغ من
عقاب الظاهر ببيروس لشاربيها - إهناً للفقهاء ورجال الدين وإقامة
لحدود الشرع إلى حد الصلب .

(١) تاريخ ابن إياس ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ١٥٥ .

فقد روى أنه قبض على رجل يسمى الكازرونى وهو سكران فأمر بصلبه
فصلب ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه ، فلما عاين أرباب المجون والخلاعة
ما جرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة ، وقال
شاعرهم :

لقد كان حَدَّ السَّكْرِ من قَبْلِ صلبه
خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى
ألا تَبَّ فإن الحد قد جاوز الحدا

وقال أبو الحسن الجزار :

قد عَطَّلَ الكوب من حبابه
وأخلى الثمر من ربابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى
على الذى فات من شبابه (١)

ومن المفاسد التى انتشرت أيضا فى ذلك العهد الحشيش
يدخنونه ويضعونه ، وكان بعض الناس يأوون إلى بقعة بأرض البطالسة
تعرف بالجينة يأتون فيها الحشيش .

قال المقرئ :

” وهى من أخبث بقاع الأرض يعمل فيها بمعاصى الله عز وجل ،
وتعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس ، وقد فشت هذه
الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا زائدا وولج بها أهل الخلاعة والسخف
ولوعا كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام ، وما شئ فى الحقيقة أفسد
لطباع البشر منها ، ولاشتمارها فى وقتنا هذا بين الخاص والعام بمصر

والشام والمراق تعين ذكرها * (١) .

ومن المفاسد التي انتشرت كذلك السرقة بأنواعها العديدة ،
فقد انتشر اللصوص وكونوا عصابات ونهبوا أموال الناس وانتهزوا الفوضى
التي كانت تم أحيانا حين يضطرب الأمن ، وظهر من أخطر
اللصوص في عهد السلطان الناصر لص يسمى " ابن سالم " وآخر
يسمى " المخدوم " قال ابن الوردي :

" ولهما أتباع حرامية كانوا يخطفون الحمايم فأسكوا وسمّـر
بعضهم " (٢) .

ومن المفاسد التي برزت كذلك التّجيم ، فقد روج المنجمون
لأنفسهم ولشغوذاتهم وآمن بهم جماعة من عامة الناس بل كثير من خاصتهم
وعلى رأسهم السلاطين والملوك والأمراء .

وكان للتّجيم آثاره على النساء خاصة ، قال ابن كثير فـسـس
حوادث سنة ٧٣٣ هـ : " وفي نصف شعبان أمر السلطان بتسليم
المنجمين إلى والي القاهرة فهدروا وحبسوا لإفسادهم حال النساء
فما منهن أربعه تحت العقوبة ثلاثة من المسلمين وواحد من النصارى " (٣)

ولا استكمال الصورة الإجتماعية لا بد أن نلقى نظرة سريعة على
الناحية التجارية والناحية السكنية في ذلك العصر ، فقد كانت القاهرة
في عصر الماليك مركزا كبيرا للنشاط التجاري والعمراي ويقال إنها كانت
من أعظم المراكز العربية في ذلك الحين وخصوصا بعد سقوط بغداد ،

(١) خطط المقرئ ج ٣ ص ١٣٦ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٣٩٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦١ .

فقد خلفت بغداد في عظمتها وسعة نشاطها بعد غزو التتار لبغداد ووقوعها في أيديهم فأصبحت التجارة ترد إلى القاهرة من سائر بلاد المشرق والمغرب وكانت مصر والقاهرة إلى ذلك الحين مدينتين منفصلتين مصر - أو الفسطاط - جنوب القاهرة تطل على النيل وتقابل جزيرة الروضة وبها المسجد المتيق - جامع عمرو بن العاص - تفصلها عن القاهرة بطائغ وفضاء متسع من الأرض يمثل من رشح الأرض أيام الفيضان وتمتاز الفسطاط بقدمها وكانت أكثر ازدهاراً بالسكان كثيرة العمران مرتفعة البيوت ، ضيقة الدروب والحارات ، وأرقى أماكنها ما كان محيطة بالجامع المتيق إلى النيل ، وكانت هي المدينة الصناعية والتجارية تتركز فيها كثير من الصناعات كصناعة الزجاج والفخار والجلود ويسكنها أصحاب المهن والحرفية من أبناء البلد .

يقول المتبريزي :

" والفسطاط أكثر أريافاً وأرخص أسماراً من القاهرة لقرب النيل منها فالمرائب التي تعمل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة " (١) .

وأقيمت القاهرة شمالى الفسطاط بحيث يقع شرقها جبل المقطم يعوق عنها ريح الصبسا ، وكانت بعيدة عن النيل وجميعها مكشوف للهواء ولم يكن ارتفاع الأبنية بها يتعد الفسطاط ، وإنما كانت شوارعها أنظف وأبعد عن الأوساخ وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار وأن كان بعض السرات يشربون من النيل .

وقد جر السالك ماء النيل إلى القلعة بقناة تديرها السواني
وترفسها من درجة إلى درجة حتى تصل إلى القلعة .

يقول المقرئى :

” والتاهرة أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لأنها أجمل
مدارس وأضخم خانات وهى سكنى الأمراء لأنها قرب القلعة .

وقد اتسع عمران القاهرة أيام الناصر واستند بين القاهرة
والفسطاط نصار بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور
والرباع والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب
والخطط والحارات والأحبار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد
والمدارس والحوانيت والمطابخ والبرك والمخيلجان والجزائر والرياض
والمنتزهات ، متصلاً جميع ذلك ببعضه البعض (١)

أما التجارة فقد اشتهرت أسواق القاهرة بازدهامها بالتجارة
وعمرانها بمختلف السلع من أنحاء المعمورة ، وهذا ما أثبتته المقرئى فى
الصفحات السالفة الذكر حين قال :

” وهى الآن بخير يجيئها من الشرق والغرب والشمال
والجنوب ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل ” .

ولا زدهار التجارة فى هذا العصر نشأت طبقة من كبار التجار
عرفت بالكارمية ، احتكروا بعض تجارة السلع المستوردة التى تدر ربحاً
كبيراً ، وفى مقدمتها الرقيق ، فأثروا ثراءً فاحشاً حتى بلغت ثروة بعضهم
أرقاماً خيالية ، كالتاجر اليهودى الأصل عبد العزيز بن منصور الكريشى الذى
قيل إنه كان لديه ستة خدام بيد كل واحد منهم مائة ألف دينار للتجارة ،

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٣٦٧ - ٣٦٩ .

ثم ازداد ماله وصار يضرب به المثل في الفنى وكثرة المال وعجز عن حصر أمواله حتى قيل إنه بلغ مكس ما أحضره مرة إلى مصر في سنة واحدة لأربعين ألف دينار ، وكان متسعاً في نفقاته على خلاف طرائق التجار ، ومات هذا التاجر بالأسكندرية فأخذ كريم الدين الكبير من ماله صندوقاً كبيراً ملوئاً بجواهر نفيسة لا يقدر ثمنها * (١) .

وكان لكبار التجار دور كبير في العلاقات السياسية بين دولة المماليك والدول المجاورة لها ، كالدور الذى قام به التاجر المسمى "سكران" فقد قام بدور السفارة بين الملك الناصر محمد وأحد ملوك التتار وقد وصل الأمر إلى زواج السلطان من ابنة "ازيك" وقد حمل الهدايا إليه من الناصر * (٢) .

كذلك كان للتاجر - مجد الدين السلامي - الفضل في عقد الصلح بين السلطان الناصر محمد والتتار سنة ٧١٣ هـ .

قال ابن الوردي عن هذا الصلح :

" وذلك بحسن تدبير مولانا السلطان وبركة سياسته التى تحيرت فيها الأفكار حتى عاد أسماراً على السنة السمار * (٣) .

واتسعت العلاقات التجارية بين مصر والشام وسائر دول المشرق والبحر المتوسط وأوروبا واستوطنت بعض الجاليات الأجنبية في شقور مصر وعاصمتها وكان من بينهم تجار من جنوه * (٤) .

(١) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٤ .

(٢) تاريخ ابن الدوادارى ص ٣٠٣ .

(٣) " " " " ص ٣١٣ .

(٤) الملوك ج ٣ ص ١٠٣ .

وكان لبعض التجار الأجانب علاقات خاصة مع بعض كبار
الأمرء ، وكان بعض الأمرء يودعونهم بعض الأموال بفصد التهريب
والهروب إلى بلاد الأفرنج إذا دعا الأمر ، كما فعل الوزير كريم الدين
الذي كان يحترق الفرار إلى بلاد الأفرنج بعد أن أودع مالا كثيرا لبعض
التجار الأجانب وقد كشف أمره قبل الهروب وأحبط مخطئه (١) .

بهذا نكون قد رسمنا صورة مبسطة للناحية الإجتماعية في العصر
الذي عاش فيه ابن سيد الناس .

ففي هذا الجو المشحون بالمشكلات ، وفي هذا المجتمع المليء
بالمناقضات كانت حياة عالما أبي الفتح ، وقد كان مسكنا بالظاهرية
وولى درس الحديث بها ومدرسة أبي حلية ومسجد الرصد كما ولى
خطابة جامع الخندق وصنف وألف في مختلف العلوم والآداب ، وفي
داره ومحل إقامته بالظاهرية كان يستقبل الأصدقاء والأصحاب وطلاب
العلم والآداب على اختلاف أغراضهم ومقاصدهم .

ومن بين الذين استقبلهم واستضافهم في تلك الدار صديقه
الصفدى فقد أقام عنده في منزله ما يقرب من سنتين فما رأى منه إلا حجابة
الصدر وطيب المعشر وحسن الضيافة .

قال الصفدى :

" وأتمت عنده بالظاهرية تريبا من سنتين فكنت أراه يصلى كل
صلاة مرات كثيرة فسألت عن ذلك فقال لى : خطر لى أن أصلى كل
صلاة مرتين ففعلت وسهل على ثم ثلاثا ففعلت ثم أربعا ففعلت : قال
وأشك هل قال خصا (٢) .

(١) تاريخ ابن الدوادارى ص ٣١٥ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٤ .

ويقال إنه كان طيب القلب ظاهر النفس لا يحمل هما ولا
حقدا بساما صاحب دعاية ومرح ، مما زرع له المحبة في قلوب كثير
من الناس ، وقد شهد له بذلك كبار المؤرخين والمترجمين ، قال
الذهبي :

" وكان طيب الأخلاق بساما صاحب دعاية ولعب (١) ، كسا
معاشرا لا يحمل هما " .

وقال عنه البرزالي :

" كثير التواضع طيب المجالسة خفيف الروح كسا . . . محبا
لطلبه الحديث . . . " .

من كل ما تقدم نشعر بوجود ابن سيد الناس الإجتماعي ومشاركته
الفعلية في الحياة الإجتماعية في عصره وبذل مواهبه وطاقته العلمية
والأدبية في سبيل رفعة المجتمع والأخذ بأيدي الآخرين .

* * *

:: الفصل الثالث ::

عصره الثقافي

الحديث عن عصر ابن سيد الناس من الناحية الثقافية يجعلنا نتناول جوانب الثقافة المختلفة المتعددة ، كالتعليم والمدارس والبيئات الثقافية والعلوم على اختلاف أنواعها ، ومشاهير العلماء والأدباء وكل ما يمت إلى الثقافة بصلة .

قلنا فيما سبق أن مصر ورثت العراق في الزعامة السياسية بعد سقوط بغداد سنة ٦٤٨ هـ وانتقال الزعامة السياسية انتقلت إليها كذلك الزعامة الثقافية والفكرية والحضارية فأصبحت القاهرة خليفة بغداد منذ منتصف القرن السابع وطوال قرون طويلة تالية .

ويؤيد ذلك هجرة العلماء ، والأدباء من مشرق العالم العربي والإسلامي إلى مصر ، فزادوا شهرة وألقا ود رسوا في مصر في هذا العصر وانتشرت الثقافة الإسلامية العربية وعمت أرجاء كثيرة من العالم .

ونذكر من هؤلاء العلماء والأدباء الوافدين من المشرق بعض المشهورين منهم :

فقد كان من بين الوافدين الخطيب القاضي جلال الدين القزويني وسعد الدين التفتازاني ، والتبريزي ، وصفي الدين الحلبي ، وغيرهم .

وقد ماثل هجرة المشرق هذه هجرة من المغرب أيضا ، فقد أصبحت مصر محطاً لرحال كثير من علماء المغرب والأندلس .

ومن وفدوا إليها من الأندلس من أكابر العلماء الفقيه المحدث الحافظ أبو عمرو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليجمري الربيعي ،

والد الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس - الذي نحن بصدده الحديث عنه وعن عصره الثقافى *

فقد قال صاحب الدرر الكامنة :

" وكان أبوه قدم الديار المصرية ومعه أمهات من الكتب كصنف ابن أبى شيبة ومسنده ومصنف عبد الرزاق والمحلى والتهميد والاستيعاب والاستذكار وتاريخ ابن أبى خيثمة ومسند البزار " (١) .

ومنهم أيضا ابن دحية المحدث صاحب المطرب فى شعر أهل المغرب ، وابن سراقه الشاطبى الأندلسى الذى ولى مشيخة دار - الحديث الكاملة إلى حين وفاته سنة ٦٦٣ هـ وكان أحد الأئمة المشهورين بفزارة الفضل وكثرة العلم " (٢) .

وابن سعيد على بن موسى العالم الأديب الذى توفى سنة ٦٧٣ هجرية وقد جاء من المغرب وجال فى الديار المصرية والشام والمغرب وجمع وصنف والتقى بكثير من أجلة علماء مصر وأدبائها وترجم لهم ونقل عنهم فى كتابه المشهور : " المغرب فى حلى المغرب " (٣) .

وابن منصور على بن مومن الحضرمى الأشبيلى حامل لواء العربية بالأندلس ، والشريشى محمد بن أحمد النحوى الأندلسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ جاء من المغرب وطاف البلاد وسمع الحديث ببغداد ودمشق وحلب والقاهرة وجمع ودرس بمدارس تلك البلاد ، وفى دمشق درس بالرباط الناصرى والنورية ، وفى القاهرة درس بالفاضلية ثم استقر بسين

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣ ط دار الكتب .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٦ .

(٣) نفع الطيب ج ٣ ص ٣٩ .

دمشق وبيت المقدس وتلمذ عليه ابن تيمية وألف شرحاً جليلاً لابن
معطى وكتاباً في الإشتقاق (١) .

ومنهم جابر الضرير صاحب البديعية المعروفة وله كتاب
في نقد الشعر، ومنهم أثير الدين الأديب المشهور العالم النحوي
المعروف، ومنهم أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني المتوفى
سنة ٧٦١ هـ وقد كان آية الله في العربية والبيان والأدب (٢) .

ويتوافد العلماء والأدباء من الخارج وامتراجهم بعلماء وأدباء
مصر أصبحت القاهرة وبعض المدن المصرية عامرة بدور العلم والعلماء
حافظة بمجالس المعرفة والأدب .

وكان اهتمام الناس بالكتب أمراً يستدعي الانتباه فانتشرت
أسواق الكتبيين والوراثين ، وكذلك الحال بدمشق .

ويذكر المقرئ أن سوق الكتبيين احترقت بدمشق سنة ٦٨١ هـ
واحترق فيها لواحد من الكتبيين وهو شمس الدين إبراهيم الجزري خمسة
عشر ألف مجلد سوى الكرايس (٣) .

وبانتشار أسواق الكتبيين والوراثين انتشر العلم وازدهرت
مجالس الأدب .

وعلى أثر ذلك نشطت حركة إنشاء دور العلم فأنشأ السلاطين
والملوك المدارس وأوقفوا الأوقاف وعصروا المساجد ورتبوا الرواتب للعلماء
والفقهاء وخطباء المساجد وأجروا النفقات على طلبة العلم والمنقطعين
للعبادة .

(١) بغية الوعاة ١٨٥ .

(٢) نوات الوفيات ج ٣ ص ١٧٨ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٧٠٩ .

نذكر من هذه المدارس مدرسة الظاهرية التي أنشأها سنة ٦٦١ هـ وأنشأ بها خزانة كتب عظيمة ومن أقدم المدارس التي لها تاريخ غارب في القدم والأطالة والعظمة جامع عمرو بن العاص بالقسطاط وكانت تعقد فيه حلقات للدرس في المذاهب الأربعة وله مكانة خاصة في نفوس الناس وحرص السلاطين على الإهتمام به وتجديده (١) .

وكذلك جامع ابن طولون الذي اهتم به سلاطين الماليك أيضا وأمر السلطان لاجين بتجديده سنة ٦٩٦ هـ قال المقرئ :
” وتقدم السلطان إلى علم الدين سنجر الدوادري بعمارة الجامع الطولوني وعين لذلك عشرين ألف عينا ، فصوره وعمر أوقافه وأوقف عليه الأوقاف ورتب فيه درس تفسير وحديث نبوي وأربعة دروس فقه على المذاهب الأربعة ودرسا للطب وشيخ ميصاد ومكتب سبيل لقراءة الأيتام القرآن ” (٢) .

ومن المدارس التي لها دور كبير في التاريخ العربي والإسلامي الجامع الأزهر الذي بناه جوهر الصقلي بأمر الممزر سنة ٣٥٩-٣٦١ هـ وظل منذ بناءه جامعة إسلامية وعربية يقصدها الطلاب من أنحاء العالم المختلفة فيجدون فيه زادا لعقولهم وأرواحهم المتعطشة لطلب العلم والمعرفة فينهلون من معينه الفياض ماشاء الله لهم أن ينهلوه ويجري عليهم السرى دون عناء حتى يمكنهم مواصلة الدرس والتحصيل .

وازدهر الأزهر في عهد الماليك وتولى التدريس فيه جماعة من

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٠٧ .

(٢) ارشاد الأريب ج ٤ ص ٣٨٩ .

كبار العلماء والقي ابن علاء الله السكندري حكمة ومواعظه فيه .

ومن المدارس التي أُقيمت في ذلك العهد العزية : فقد بناها

عز الدين ابيك التركمان مطلة على النيل بمصر القديمة .

ومنها أيضا مدرسة الظاهرية التي بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقاوي في منطقة بين القصرين وكمل بناءها سنة ٦٦٣ هـ وجعل بها خزانة كتب جليلة وبنى بجانبها مكتبا للسبيل وقرر لمن فيه من أئمة المسلمين الخبز كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء والصيف ، وكان أبو الفتح بن سيد الناس من الذين تولوا تدريس الحديث الشريف بهذه المدرسة فيما بعد (١) .

ومنها كذلك مدرسة السلطان حسن بالقلعة وأصبحت فيما بعد من أشرف مدارس القاهرة وأفضها في ذلك العهد وقد قالوا إن إيوانها بنى على قدر إيوان كسرى أنوشروان في الطول والعرض .

وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس لكل شيخ مذهب مدرسة تخصص به .

قال ابن حجة بمناسبة بنائها :

”لسنا وإن كرمنا أوائلنا

يوسا على الأنساب نتكلم

نبني كما كانت أوائلنا تبنى

وتفعل فوق ما فعلوا (٢)

هذه بعض المدارس والمنشآت التي تتمثل فيها النهضة العلمية والثقافية في ذلك العصر نذكرها على سبيل المثال لا الحصر ، بقى أن

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٤٣ .

(٢) تاريخ ابن اياس ص ٣٠٤ .

نأخذ صورة عن كانوا يدرسون فيها وعن الدراسة كيف كانت تسير .

فقد روى لنا مؤرخو تلك الفترة أنه كان يقوم بالتدريس فى
هذه المدارس شيوخ ومدرسون ومعيدون ، والشيخ هو استاذ المادة
يساعده المدرس ، ويعيد المعيد يدرس الشيخ لتفهيم الطلاب .

يقول السبكي :

” وعليه قد زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة
ونفهمهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو كالتقيه سوا” فما يكون قد
شكر الله على نعمة الإعادة . ويقوم بتسجيل درس الشيخ كاتب الغيبة .
وكانت العادة أن يجلس الشيخ على كرسى عال ويتلقى الطلبة حوله
حلقة ينقسمون فيها إلى مراتب هى — المبتدى — والمفيد — والمنتهى (١) .

ولما كان الخالب على هذا العصر من أنواع الملوم — العلوم
الدينية فقد تصدرت علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والأصول وما
يتصل بها من العلوم اللغوية ، ونبغ فى كل هذه الملوم جماعة من مشاهير
الملماء وأهل اللغة .

نذكر منهم الدمياطى — الشيخ شرف الدين عبدالموسى —
ابن خلف الحافظ العلامة النسابة المشهور ، كان حجة فى علم الحديث
وصاحب تصانيف عديدة ولد سنة ٦١٣ هـ بقرية تونة ببخيرة البولس جوار
مدينة دمياط ، واشتغل بدمياط وسمع الحديث وأخذ بالاسكندرية من
أصحاب السلفى وبالقاهرة من جماعة ، ولازم الحافظ المنذرى
حتى صار معيدا وتخرج عليه وأتقن علم الحديث دارية وراوية وسمع منه
خلائق بمصر ومكة وحلب وحماة ودمشق والصراف ، وقالوا فيه إنه آخر من

من بقى من الحفاظ وأهل الحديث ، وقد أخذ عنه جماعة من
أعلام العصر منهم أبو الفتح بن سيد الناس - ومنهم أيضا محمى
الدين النووى وقد طال عمره وتفرّد بأشياء وتوفى بدمشق سنة ٧٠٥ هـ (١)

وينبغ فى علوم القرآن والتفسير جماعة ، منهم عز الدين بن عبد السلام
٥٧٢ - ٦٦٠ * الذى صنف كتابه المشهور - الإِشارة إلى الإِيجاز
فى بعض أنواع المجاز (٢) .

ومنهم ابن النقيب جمال الدين محمد بن سليمان * توفى سنة
٦٩٨ هـ * وكان صالحا زاهدا درس بالعاشورية بالقاهرة ثم بالجامع
الأزهر ، وصرف همه الى التفسير وصنف تفسيراً حافلاً فى خمسين
مجلداً ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والإِعراب واللغات والحقائق
وعلم الباطن (٣) .

ومن اشتهروا فى علم الحديث من كبار المحدثين والحفاظ ابن
دحية الأندلسى الأصل الذى ولى الكاملية زمناً ثم صرفه الملك الكامل ،
وكان بصيراً بالحديث متقناً له مصرفاً بال ضبط مع حفظ وافى فى اللغة (٤) .

ومنهم القسطلانى - شرف الدين أحمد بن محمد بن أحمد
ابن على بن العلامة قطب الدين ، ولد بمصر سنة ٦٤٨ هـ وسمع عن جماعة
وعن والده وعن ابن عساكر ويحقوق الطبرى وابن دحية وحديث

-
- (١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٤١٨ .
(٢) فوات الوفيات ج ٣ ص ٤٣١ .
(٣) فوات الوفيات ج ٣ ص ٤٣١ .
(٤) النجوم الزاهرة ٦ / ٣٥٨ .

بقوس والقاهرة ومكة وتوفي سنة ٧١٤ هـ (١) .

والقيسراني - فتح الدين أبو محمد عبد الله بن عز الدين .
عنى بالحديث وروى عنه الدماطى وابن سيد الناس والبرزالي والذهبي
وجمع وألف كتباً فى معرفة الصحابة ، وخرج لنفسه أربعين حديثاً (٢) .

ومن العلماء فى مصر والشام فى هذا العصر من اقتصر على الإلمام
ببعض الحديث والتبحر فى علوم اللغة والأدب والفقه والسيرة النبوية .

منهم ابن بنت الأعز عبد الوهاب بن خلف قاضى القضاة
بالديار المصرية ، تولى مشيخة الشيوخ وبعض المناصب كالقضاء والسوزارة
وكان فقيهاً بارعاً وشاعراً متمكناً ودرس بمدارس القاهرة كالصالحية
والشافعية * قبة الشافعى * والشرقية والمشهد الحسينى وتولى خطابة
الجامع الأزهر وتقدم عند السلطان الملك الظاهر وعزل فى عهد الأشرف
عن القضاء ثم أعيد إليه بعد وفاته ، وتوفى ابن بنت الأعز سنة ٦٩٥ هـ ،
ودفن بسفح المقطم (٣) .

ومنهم ابن الرفعة * نجم الدين أحمد بن محمد بن على المصرى
الشافعى ولد سنة ٦٤٥ هـ قال ابن حجر :

* واشتهر بالفقه حتى صار يضرب به المثل وإذا اطلق الفقيه
انصرف إليه من غير مشارك مع مشاركة فى اللغة العربية والأصول * (٤) .

ومنهم ابن دقيق العيد ، تولى الدين محمد بن مجد الدين
بن على بن وهب المنظولى الفقيه الشافعى قاضى القضاة ولد سنة ٦٢٥ هـ

-
- (١) النجوم الزاهرة ٣٣٣/٧
 - (٢) شذرات الذهب ١٣٣/٦
 - (٣) النجوم الزاهرة ٣٣٣/٧
 - (٤) الدر الكامنة ٣٨٥/١

وتوفي سنة ٧١٢ هـ وكان مالكا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي
وصار من أئمة العلماء في المذهبين ، ودرس بالإمام الشافعي ودار
الحديث الكاملة ، وصنف التصانيف المشهورة كالإمام في الحديث
والاقتراح في أصول الدين ، وشرح مختصر ابن الحاجب في فقه
المالكية ولم يكمله ، قال فيه عز الدين بن عبد السلام :

* ديار مصر تفخر برجلين في طرفيها ابن المنير بالاسكندرية وابن
دقيق العبد بقوس . وذكر الصفي أنه كان مغرما بالكيمياء وأنفق
فيها مالا كثيرا وعرا ، وله ديوان شعر جيد ، وروى عنه جماعة من
كبار رجال العصر كابن سيد الناس (١) والخنوي وغيرهم .

ومنهم ايضا ابن سيد الناس أبو الفتح فتح الدين محمد بن
محمد اليمصري الإمام الحافظ الأديب المشهور ، وهو اشبيلي الأصل
وقدم إلى مصر بصحبة والده (٢) وتعلم بمصر والثمام ، قال الذهبي :

* ولعل مشيخته يقاربون الألف * وكان طيبا بساما صاحب
دعابة ولعب صدوقا حجة فيما ينقله ، وقال عنه البرزالي كان أحد
الاعيان اتقانا وحفظا للحديث فقيها في علله وأسانيده عالما بصحيحه
وسقيمة مستحضرا للسيرة له حظ من العربية حسن التصنيف صحيح
المقيدة سريع القراءة له الشعر الرائق والنثر الفائق ، يقول عنه ابن
فضل الله :

* كان أحد أعلام الحفاظ ، وإمام أهل البلاغة الواقفين بمكاز
بحر مكنار ، وخبير في نقل الآثار ، صنف السيرة النبوية واشتهر في عصره
وله ديوان شعر في المدح النبوي الشريف (٣) .

(١) طبقات الشافعية ج ٩ ص ٢٠٨

(٢) الصحيح انه ولد بالقاهرة بعد وصول والده اليها .

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٣ .

ومنهم آل السبكي وهم جماعة توارثوا العلم والأدب من بيت
مصرى عريق من بلد السبكي المصرية بمديرية الشرقية ، وتنسب هذه
الاسرة إلى الخزرج ورأسها هو : ضياء الدين على بن تمام بن حامد بن
يحيى الانصارى الخزرجى السبكي وكان قاضيا ومنها زين الدين السبكي
أبو محمد عبد الكافي بن ضياء الدين وكان قاضيا ومحدثا انتقل من سبكي
الى القاهرة وأقام بها يحمل بالتدريس واشتغل بالحدِيث ثم انتقل الى
المحلة حيث توفى سنة ٧٣٥ هـ ومنها تقى الدين السبكي على بن عبد الكافي
ابن زين الدين ولد سنة ٦٧٣ هـ وتوفى سنة ٧٥٦ هـ وهو من اشهر
رجال هذه الاسرة ومن أعيان العصر ، وقد ولد ببلدة السبكي وانتقل
مع والده الى القاهرة حيث تلقى تعليمه فأخذ عن والده وعن جماعة من
الشيوخ كابن بنت الأعز وعلم الدين العراقي وتقى الدين الصائغ والدمياطى
والساجى وابن حيان وغيرهم ، وكان عالما محدثا قاضيا فقيها مفسرا للقرآن
منحلقيا نحويا إلى غير ذلك .

وهذه اللوحة السريعة نكون قد أخذنا فكرة عن مشاهير العلماء
والأدباء وقيادتهم الرشيدة لسفينه الحضارة والثقافة فى هذا العصر حتى
أرسوا السفينة على شاطئ الأمان وسلموا الراية لجيل آخر من الرواد .

ولتتكمّل صورة الحياة الثقافية فى هذا العصر لا بد أن نأخذ
فكرة عابرة عن ظاهرة الطرق الصوفية ، والمدائح النبوية ، والمواعظ والحكم
— وذلك لبروز هذه الظواهر بشكل أكثر وضوحا فى هذا العصر ، فقد
انتشرت الصوفية انتشارا واسعا وتغلغلت فى أوساط الناس ، وتعددت
اسماؤها وأسماء رجالها واعترف بها رجال الدولة الحاكون فقربوا شيوخها
ومريديها ونوا لهم الزوايا والرباطات لإيوا الفقراء منهم والصر فعليهم
وعدوا ذلك بركة وتقربا الى الله .

ومما يروى عن اعتقاد السلاطين فى رجال الصوفية أن السلطان

لاجين كان يعتقد فيمن يسمى الشيخ محمد بن مسعود القرنى شيخ الصوفية فى رباط سعيد السعداء وكان يعظمه (١) وكان اولئك الشيوخ يدخلون فى روع السلاطين أن بمقدروهم الكشف والإتيان بالخوارق ومن هنا اهتم السلاطين ببناء خانقاه للصوفية ووضعت شروط لمن يدخلها ويقيم بها ، وجعل على كل خانقاه شيخ لها سمي شيخ الشيوخ .

ومن أشهرها فى العصر المملوكى خانقاه سعيد السعداء وكان شيخها ائاما كبير شيوخ الصوفية وله مكانة جليلة تقرب من مكانة قاضى القضاة وخطيب المسجد الجامع .

ومن بنى منهم خانقاه السلطان بيبرس الجاشنكير له خانقاه بالقرب من باب النصر كان بها اربعمائة صوفى (٢) .

ومنى السلطان الناصر محمد خانقاه سرياقوس سنة ٧٢٥ هـ واهتم ببنائها اهتماما عظيما ، وخرجت القضاة والمشايخ والصوفية إليها ، وعمل ورتب عنده مائة صوفى ورسم للشيخ بخلعة وأن يلقب بشيخ الشيوخ وخلع على جماعة من الشيوخ وفرق من الذهب والفضة على المشايخ نحو ثلاثين ألف درهم (٣) .

ومن النظم السائدة فى هذه الرباطات أن شيخ الرباط يقوم على تربية المريدين على نكران الذات وتحمل الشدائد والرياضة الروحية وممارسة العبادة والالتزام بسلوك وأدب معين ، وهذا يصبح الرباط مكانا منقطعا للرياضة الصوفية ، فيه يجتمع الفقراء حول الشيخ يدرسه

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٥٧

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٣٧٨

(٣) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٢٩

ويأخذ بأيديهم في الطريق ، ويقوم العمل فيه على نظام صارم في الحياة والعبادة والذكر ولهم فيما بينهم لغة يفاهمون بها ولا يدرك مراميها سواهم أو من ألم من معتقداتهم بطرف ، ومن هذا المنطلق شاعت فلسفة احتقار الدنيا في كتابات العلماء والنسك ، قال تاج الدين السبكي :

" فأقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها و -
وكدرتها وانصرامها ، وعظم الآخرة وصفائها ودوامها وأن يعلم أنهما متضادان وأنهما ضربتان متى أرضيت واحدة اسخطت الأخرى (١) .

ومن مثل هذه المفاهيم انطلقوا وقالوا في التصوف :

" هو يفضلك الدنيا حياً في الله أو هو موتك في نفسك
كي تحيا في الله " .

وقد سلكت الصوفية في الوصول إلى هدفها المنشود طريقين :
طريق الزهادة والتقشف والفقْر والإعراض عن الدنيا ومهجتها - وطريق
الإخلاص والتفاني في العبادة وصفاء النفس حتى يبلغ المرتبة المرجوة .

ومنظرة فاحصة منصفة إلى الصوفية في ذلك العصر نجد منهم
محقين وصادقين ومخلصين في دعوتهم وزهدهم وتقانيهم في محيوسهم ..
ومنهم أدياء مقلدين منتفعين محتالين يتظا هرون بالنسك والتعبس
لكسب الرزق والاستيلاء على عقول البسطاء والجهلاء من الملوك والرؤساء
والعامّة .

والمخلصين هم الذين يتمشى سلوكهم مع الشريعة الإسلامية
ولا يتعارض مع نصوصها بل يتخذها منهجاً وطريقاً له ولا يأتون فسى

(١) مجيد النعم ص ٩٥ .

أعمالهم وأقوالهم بشئ" يقود إلى نساد العقيدة مثل القول بالحلول والاتحاد وغيره .

ومن أمثلة المخلصين الشيخ الجنيد رضى الله عنه شيخ الصوفية وإمامهم علما وعملا وكل من اتبع طريقته وسار على نهجه ، وفى كلام السبكي ما يؤيد ذلك حيث قال : " وطريقهم كما قال شيخ الطائفة ابو القاسم الجنيد رضى الله عنه : طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة " .

وقال : " الطريق مسدود على خلق الله إلا على المفتين آثار الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما الذين يشطحون ولا يراعون الاعتدال فى دعواهم ويتهاونون فى اتباع الكتاب والسنة ويتناولون على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على اعتبار أن الرسائل والتكاليف لا تقع على أهل الحقيقة ولكنها لعامة الناس ممن لا يستطيعون ولا يملكون طريقة الحقيقة واتخذوا من قصة موسى مع الخضر فى القرآن دليلا على معتقدهم لأن الخضر هو صاحب الحقيقة عندهم وموسى هو صاحب الشريعة ، هؤلاء هم الخارجون على الطريقة الصوفية السليمة ويمكن أن نسميهم وعقيدتهم دخلاء على الإسلام ومعتقداتهم ، وعلى العقلاء مقاومتهم ومناهضة دعوتهم الفاسدة .

ومن هذا الجانب اختلطت الأمور وأصبح مفهوم الصوفى والصوفية عرضة لكثير من الخلافات والنزعات حتى قال الشيخ تقي الدين السبكي " الصوفى من لزم الصدق مع الحق والحق مع الخلق ، وأنشد :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
قدما وذنوه مشتقا من الصوفى

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى

صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

وقد كثرت ادعاءات التصوف للحيش والإلباس على الناس على الناس وقد لبس كثير من الأدعياء الصوف والمرقعات تشبيها من غير عمل ، وهؤلاء يقول فيهم الإمام الشافى رضى الله عنه " رجل أكل كثير الفضول " .

وقال الامام ابو المظفر السمانى " نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ وَمِنَ الصُّوفَى إِذَا عَرَفَ الدَّارَ "

وقال أبو حيان فى أدعياء الصوفية : " أكله بطله سوطلة لا شغل ولا مشغلة " .

وقيل فيمن يُظهِرُ التصوف وَيُخْفِي فاسد العقيدة : " رجل يظهر الإسلام ويخفى فاسد العقيدة فى نهاية الإقدام ، وفى رجله جمجم وعذبتة من قدام ، ويكون غالبا من بلاد الانهجام ،

وقال الشاعر :

ليس التصوف لبس الصوف ترقصه

ولا بكأوك إن غنى المفنوننا

وذكر المقرئى أدعياء التصوف لكثرتهم فى ذلك العهد واشتياهم أمرهم على الناس قال : " قوم ممن المفتونين لبسوا لبسة الصوف لينسبوا إليهم وما هم منهم فى شىء بل هم فى غرور وغلط يتسترون بلبس الصوف قبيحاً تارة ودعوة تارة أخرى وينهجون مناهج أهل الإياحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى وأن هذا هو الظفر بالمراد ، والاتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والتاصرى الأفهام وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والابعد " .

قال :

" ذهب والله ما هنالك وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح
الدين محمد بن محمد ابن سيد الناس :

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليـ

— م سوى ستة بفسير زيادة

وهى نيك العلوق والسطلـة

والرقص والغنا والقيـادة

وإذا ما هذى وأيدى اتحادا

وحلولا من جهلة وأعادـه

وأتى المنكرات عقلا وشرعا

فهو شيخ الشيوخ ذوالسجادة (١)

وقد وصف الصفدى هيئة أحد رجال الصوفية فقال :

" شيخٌ مُصَيَّبٌ فُقيـرٌ حـرشوفٌ ، مكشوف الرأس منقوش الشعر عليه
دلق رقيق بالى الخلقة رقيق ، قد تمكن منه الوسخ ، ونبت فيه ورسخ
قد جمعه من عدة رفاع له مدفأة يستدفئُ بنارها " .

هذا من الناحية التاريخية والسلوكية لظاهره التصوف والصوفية .

أما الناحية الأدبية فقد اتخذ الصوفية الشعر وسيلة للتعبير
عن أحاسيسهم ومشاعرهم ومواجدهم والشعر أقدر بطبيعته على التعبير
عن الموجد ونقلها إلى مشاعر الآخرين من النشر .

واشتهر فى القرن السابع والثامن جماعة من كبار شعراء الصوفية
وعلى رأسهم ابن الفارض وابن عربى والسروجى ، وغيرهم ، وكانت لهم قصائد

(١) خطط المقرئى ج ٣ ص ٤٣٤ .

— ولا زالت حتى الآن — تسلب العقول في الحب الإلهي .

ومن هذه القصائد قصيدة الشيخ تقي الدين السروجي

والعنى يقول فيها :

أنعم بوصولك لى فهذا وقته

يكفى من الهجران ما قد ذقتَه

أنفقت عمري فى هواك وليتنى

أعطى وصولاً بالذى أنفقتَه

يامن شغلت بحبه عن غيره

وسلوت كل الناس (١) حين عشقتَه

وإذا كانت ظاهرة الحب الإلهي والوجد والعشق قد غلبت على الشعر الصوفي في ذلك العصر ، فهناك ظاهرة أخرى في هذه المرحلة ناقست هذه الظاهرة وخصوصاً في القرن السابع الهجري وهى : المدائح النبوية واتخاذها سبيلاً للتعبير عن الحب الخالص الحميق ، ومن أبرز الذين اختطوا طريقاً المدائح النبوية فى الشعر الصوفى — البوصيرى — مجمد بن سعيد بن حماد صاحب قصيدة — البردة — النبوية المشهورة ، وتقع بردة البوصيرى فى مائة واثنين وثمانين بيتاً وبينهما وبين ميمية ابن الفارض تشابه كبير فى الوزن والقافية وكثير من المعانى كأسماء الأمكة فى الحجاز والجزيرة العربية .

وقد اقتضى أثرهما ونهل من منهلها كثير ممن جاؤا بعدهم من عاشقى مدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم منهم الشيخ محمد بن محمد ابن سيد الناس فى ديوانه المخطوط المسمى " بشرى اللبيب بذكرى الحبيب "

(١) الطالع السعيد ٣٢٥ .

وجميع تصائد الديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته
الكرام .

أما الموعظ والحكم فأنا نلتقى بها عند ابن عطاء الله السكندري
فقد اشتهر هذا العلم بحكمه العظيمة التي تمتاز بالأسلوب الجميل
والعبارات المشرقة التي تنساب في النفس فتكسيها الطمأنينة واليقين
والإيمان .

وحكمه في جملتها مجموعة من الجمل ذات الفقرات القصار لهم
أغراض ومعاني مختلفة وأسلوبها أسلوب عربي متميز فيه الإلتفات وتنويع
الخطاب وغالبا ما تتجه إلى المرید فتخاطبه خطاب المفرد وتزدان
أحيانا بالسجع المتواتر كما أنها صوفية تميل إلى التجريد أحيانا كقوله :

" من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود
الزلل " وكقوله :

" تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال "

وتارة يميل إلى التجسيد والتصوير بالتشبيه كقوله :

" ادفن نفسك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يستم
نتاجه " وكقوله :

لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار يسير والمكان الذي ارتحل
إليه هو المكان الذي ارتحل منه ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون .

وتارة يقف ابن عطاء الله في حكمه عند المعنى فيديره في صور
متشابهة من اللفظ والمعنى كقوله :

" كيف يتصور أن يحجبه شيء "

وهو الذي أظهر كل شيء "

كيف يتصور أن يحجبه شئ

وهو الذي ظهر بكل شئ

كيف يتصور أن يحجبه شئ

وهو الذي ظهر في كل شئ (١)

وبنظرة عميقة إلى حكم ابن عطاء الله السكندري نجدها بصفة
عامة أفعال مأثورة لا يربط بينها روابط متسلسل من المعنى بل هي
فقرات نظمت على فقرات مختلفة *

وجاء في أفعال من ترجموا له أن أنصاره جمعوا له كلاما كثيرا
وكانت هذه الحكم من بين ما جمعه منسوبا له *

% % %

بعد هذا العرض السريع لعصر ابن سيد الناس نقول :

في هذا العصر الثقافي الذي تنوع فيه المعارف ، وتعددت المشارب
وخيم عليه الركود والضعف في الأدب واللغة كما يقول مؤرخو هذه
العدة عاش صاحبنا العالم الجليل والأديب الرقيق أبو الفتح ابن سيد
الناس *

وقد نهل من مناهل العلم والأدب وتأثر بالعلماء والأدباء
الذين عاصروهم أو أخذ عنهم وكان موضع تقدير وحب وثناء من أساتذته
الذين أخذ عنهم *

ومن الذين كانوا يثنون عليه ويثقون في فهمه وحفظه وذوقه
استاذه الجليل ابن دقيق العيد فقد روى الصلاح الصفدي عن عماد
الدين بن القيسراني قال :

(١) حكم ابن عطاء الله السكندري - ط - ١٤٥٤ م *

"أخبرني عماد الدين بن القيسراني قال :
كان ابن دقيق العيد إذا حضرنا درسه وجاء ذكر أحد من
الصحابة والرجال قال :
إيش ترجمة هذا يا أبا الفتح ، فيأخذ في الكلام ويسرد والناس
سكوت والشيخ يصح لما يقول " (١) .

ولا غرابة في ذلك فقد كان ابن سيد الناس - فيما بعد - محبا
للسيرة النبوية مولفا فيها خبيرا برجالها ، فقد ألف كتابه المسمى
" عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير " وكان جيدا
وفريدا في نوعه واختصره فيما بعد في مختصر سماه " نور العيون " .

أما الإنتاج الأدبي بنوعيه الشعر والنثر فقد كان ناظما ناثرا
أديبا مطبوعا رقيقا يقول الشعر بلا كلفه ، فقد قال القطب عنه :
" إمام محدث حافظ أديب شاعر بارع جمع ألف وخمسة
وأربعين وصارت له يد طولى في الحديث والأدب مع الإتيان " .

وقال عنه البرزالي :

" له الشعر الرائق والنثر الثائق "

وقال عنه ابن فضل الله :

" كان أحد أعلام الحفاظ وإمام أهل البلاغة الواقفين بمكاف
بحر مكثار وخبير في نقل الآثار وله أدب أسس قيادا من النسيان
بأيدي الرياح وأسلك مرادا من الشمس في خيمة الصباح " .

وقال عنه الصفدي :

" كان حافظا بارعا متفننا في البلاغة ناظما ناثرا مترسلا " (٢)

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٣ . (٢) المصدر نفسه

وإذا كان الخلود والبقاء الدائم للإنسان يكون بقدر ما قدمه من عمل جليل وما خلفه من جهد مشكور في مجال العلوم والآداب المختلفة فقد خلف ابن سيد الناس ثروة عظيمة كلها كانت في خدمة الشريعة الإسلامية وخصوصاً في علم الحديث ودراية ورواية ، وفي السيرة النبوية وتاريخها الناصح المشرق وكذلك سيرة الصحابة والسلف الصالح ، أما اللغة والأدب فمؤلفاته الموجودة تشهد بما قدم .

من كل ما تقدم نحي بالدور الثقافي والأدبي الذي اضطلع به ابن سيد الناس في عصره . فقد شارك في النهضة العلمية والأدبية وأخذ من كل فن بطرف ، فهو - عالم - محدث - مؤرخ - أديب مطبوع قال الشعر الرائق والنثر الفائق ، إلا أن شهرته كمؤرخ وحافظ قد غلبت على شهرته كأديب .

والذي يقرب صفحات تراثنا العربي الخالد متمثلاً في لغتنا العربية وعلومها وآدابها وشيئتنا الإسلامية يجد بصمات هذا الرجل شاهداً على ما قدم وبذل .

:: الفصل الرابع ::

نشأته وحياته وثقافته

نشأ أبو الفتح بن سيد الناس في بيت رئاسة وعلم وأدب ، فقد كان جده أبو بكر يلقب بخطيب تونس وعالم المغرب ، وكان والده أبو عمرو ذا علم ودراية بالشريعة الإسلامية واللغة العربية وعلومها ، وولي مشيخة الكاملية بعد ابن دقيق العيد .

أما إخوته أبو القاسم وأبو سعد فقد كانا على قدر من العلم والأدب (١) . ولم يكن العلم في هذا البيت مقصورا على الرجال بل تعداهم إلى النساء ، فقد كانت جدة أبي الفتح من جهة أبيه السيدة أم العفاف نزهة بنت الحسين - سليمان بن أحمد بن سليمان اللخمي ، عالمة فقيهة لازمها الرجال من آباءه وأجداده واغترفوا من علمها الغزير .

(١) أبو القاسم هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو القاسم ، سمع من العز الحرائي أمالي القطيعي ومن ابن خطيب المزة وابن الانماطي وغيرهم ، واعاد بالأشرفية ودرس بجامع الصالح . سمع منه شيخنا العراقي ، ومات في سنة ٧٤٩ هـ * الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٥ *

أما أبو سعد فهو: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ، سعد الدين أبو سعد ابن الحافظ أبي عمرو بن الحافظ أبي بكر بن سيد الناس اليعمرى ، ولد سنة ٦٧٠ هـ وهو أخو الحافظ فتح الدين ، سمع من ابن الانماطي والعز الحرائسي وابن خطيب المدة وغازی الحلاوي وشامية بنت البكري في آخرين ، وحدث وكان ينظم ويشهد ، مات في ربيع الاول سنة ٧٣٨ هـ * المصدر السابق * .

وكان ابن عمه - خيرا - قائداً حاجياً بأشبيلية وهى موطن آبائه وأجداده الذى نشأوا فيه ، يقول المراكشى فى رسالة ابن بكر بن سيد الناس وتعريفه بموطن آبائه وأجداده :

" مولد جدى الفقيه أبى محمد بأيدى سنة إحدى عشرة وخمسمائة وتوفى بأشبيلية عام الأرك سنة إحدى وتسعين وتوفى بها فى منتصف جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وستمائة ومولدى بقرية من قرى أشبيلية تسمى الحَجِّيرة - خرج أبواي لها فى غلة الزيتون لضم فائد أملاكهم وكانا متحابين لا يصبر أحدهما عن الآخر فخرجنا جميعاً إليها فكانت ولادتى بها لعشر ليال بقت من شهر اكتوبر الأعجى ولا أدرى ما وافق من الأشهر العربية لتلف تقييداتى وتقييدات سلفى فى ضيعة كسبى " (١) .

ما تقدم نقف أمام البيت الكبير الذى نشأ وترعرع فيه "أبوالفتح" والأسرة العريقة فى المجد المادى والادبى التى غزته بلنائها والمهته ثديها فنشأ نشأة حسنة وكان ثمرة طيبة لهذا البيت الطيب وصدق الله العظيم : " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والسدى حيث لا يخرج الا نكدا " .

ولكى نقف على نشأته وحياته وثقافته لا بد أن نذهب مع المترجمين له بين طيات الكتب .

قال صاحب الدرر الكامنة مترجماً له :

(١) الذيل والتكملة للمراكشى ج ٥ ص ٦٥٣ - ٦٦١ / المكتبة الاندلسية .

محمد بن محمد (١) بن محمد (٢) بن أحمد بن عبد الله
ابن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن
عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس بن الوليد بن منذر بن عبد الجبار
بن سليمان أبو الفتح فتح الدين اليعمرى الشافعى الحافظ العلامة
الاديب المشهور ولد في ذى العقدة سنة ٦٧١ هـ بالقاهرة وكان من

(١) محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد
ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز
ابن سيد الناس اليعمرى الربعى ابو عمرو بن ابي بكر ولد في
جمادى الآخرة سنة ٦٤٥ هـ وسمح ببجاية من أبيه ومن عبد الله
ابن الابنارى وأبي الحسين بن السراج ، وتونس من أبي اسحاق
ابن عباس وبالسكندرية من منصور بن سليم ومصر من ابن النجيب
وابن علاقة ومكة من ابي اليمن بن عساكره وطلب بنفسه وقرا
ونسخ واسمح أولاده وهم أبو الفتح وأبو القاسم وأبو سعيد ، وله
إجازة من عبد الرحيم بن عبد المنعم بن القرش وأحمد بن فرمون
وابن عبد الدايم وشيخ الشيخ وكان يدري اللغة العربية وله
نظم وفضائل ولى وشيخة الكاملية بعد ابن دقيق العيد ثم
انتزعمها منه بدر الدين بن جماعة ، ومات في جمادى الأولى
سنة ٧٠٥ هـ ، الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٧٩ .

(٢) محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد
ابن أبي القاسم سيد الناس ، ووليت عليه كنيته حتى صارت كالاسم
وربما كنى أبا الفضل بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد
الناس بن الوليد بن منذر بن عبد الجبار بن سليمان بن عبد العزيز
ابن حرب بن محمد بن حسان بن سعد بن عبد الرحيم بن خلف
ابن يعمر بن مالك بن بهثة بن حرب بن وهب بن حلى بن
أحمد بن ضبعة بن ربيعة بن القوس بن نزار بن معد بن
عدنان اليعمرى ، اشبلى ابندى الاصل ، وسلفه ناقلة من منبج
وقد ذكر ابو محمد عبيد الله الحكيم منهم أبا الوليد بن منذر المذكور
ورفع نسبه الى يعمر بن مالك كما اثبتناه ، سكن شريش مدة وبجاية
مدة أخرى ، واستوطن بأخرة تونس ، ابو بكر بن سيد الناس

بيت رياسة في بلاده وكان ابن عمه " خيرا " قائدا حاجيا
باشبيلية " (١) .

وقصة السيادة والقيادة في شئون العلم والحياة في اسرة " ابي
الفتح " رواها لنا المراكشي في رسالة ابن سيد الناس - الجد - ابي
بكر - سالفة الذكر قال :

" وقد وقفت على جوابه بخطه لمن سأله عن موضع سلفه
بالاندلس وسبب حلولهم باشبيلية رأيت اثباته هنا وأن كان فيه بعض
طول لتعلم منه بعض أحواله . ونصه :-

" أما أصلنا من منبج الشام وخرج سلفنا غزاة في طالعنة
بلج واستوطنوا أبده جياك ويقال إنها شبببة ببلدهم في خصبها
واتساع خيرها ولم يزل سلفي بها إلى سنة نيف وخمسمائة وقد
ثار بها ابن همشك فقربهم منها احتياطا - زعم على استيثاق - إمرته
بها فنقل منها جدي الأعلى الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد بن يحيى بن
محمد ونيه الأربعة الفقهاء الانباه ابا على الحسين بن محمد و ابا الحجاج
يوسف بن محمد و ابا محمد عبد الله بن أبي بكر ، و ابا بكر يحيى بن محمد

تلا على ابيه وجدته أم ابيه ام العفاف نزهة بنت أبي الحسين
سليمان بن أحمد بن سليمان اللخمي ، تلا بالتسع السبع المشهورة
وقراءتي يعقوب و ابي محيصة ، وعلى أبيه زيادة بثنتين وعشرين
رواية من الشواذ ، وقرا عليهما جملة كتب ولازم جدته نحو ستة أعوام
ونصف ، وأباه نحو خمسة عشر عاما ونصف ، وكان حافظا للقرآن
العظيم منسوبا إلى تجويده واتقانه أدائه ذا حظ من التفسير ورواية
الحديث واشتغال بروايته وتشبع بمعرفة الرواة ومشاركة في العربية
وقرض الشعر ، اكتب بحسن العصر من نظراشبيلية مدة وفي

وكان أصغرهم واحتبس الشيخ عنده في منزل مكرما الا أنه محجور
عليه التصرف دون بنيه فتحيل بنوه فخرجوا عنه وقد اخيفوا ولم تسعهم
طاعة وكرهوا التوجه الى مرسية لنقيضه ابن مردنيش لما تخوفوا
من لحاق مضره اميرهم بأبيهم فلحقوا بأشبيلية وقد استوسق
بها ملك المومنين ففرح اميرهم لواليتها اذ ذاك اظنه ابن الجبر
أو غيره فرفعهم الى القدوة حتى بايع ابن همسك ، ورجعوا في العودة
الى اندلسهم فاسعفوا بذلك على أن يسكنوا اشبيلية وكان ذلك ، وأمر
أبوهم باللحاق بهم فاجتمعوا بها عن هذا كان أهل موقعنا
بأشبيلية في حدود ستة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فتاهلوا بها وولد لهم
الاولاد الا من كان منهم ولد له قبل ذلك وهم معلومون بتواريخهم ،
وقيت املاكا ببلدنا أبذه الى أن تغلب العدو عليها ، واتخذنا
أملاكا آخر بعمالات اشبيلية داخلها وخارجها وما يرجع اليها ولم تنزل
عاقبتها بأيدينا الى أن تغلب العدو عليها سنة ست وأربعين وستماية
نفع الله بذلك (٢) .

بهذا النص المنقول نتبين العراقة والمجد العليد الذي كانت

الاكتتاب اذهب معظم عمره بالاندلس ثم فصل عنها واكتب بقرية
خاملة من قرى شريش تدعى بونينه بيا بواحدة معقودة مفتوحة وواو
ساكنة ونونين أولاهما مكسورة وآخرهما مفتوحة وبينهما بيا مشثولة
وهاء سكت ، وهي مجاورة كرنانة ، احدى شاهيرقرى شريش ،
وفصل عنها الى سبتة ثم الى بجاية بعد الاربعين فذكر هناك بجود
وخير وفضل ودين فقدم الى الامامة والخطبة بجامعها ثم استدعى
منوها في حدود سنة ٦٥٤ الى تونس وقدم الى الخطبة بجامعها
الجديد والصلاة به وتصدى لاسماع الحديث وغيره * الذيل
والتذكرة للمراكسي ج ٥ ص ٦٥٣ - ٦٦١ المكتبة الاندلسية *

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٠ دار الكتب الحديثة *

(٢) راجع رسالة ابن سيد الناس في المصدر السابق ذكره *

تمتع به أسرة أبي الفتح وتوارثه كابراً عن كابر ، كما نتبين العوطن الاول —
لهم وهو بلاد الشام والاندلس وأشبيلية على وجه الخصوص ، وقد تنقل بعض
آبائه بين تونس والمغرب وتولوا بعض المناصب ونفعوا بلعلمهم وأدبهم
وانتهى بهم المطاف إلى بلاد المشرق حيث ولد أبو الفتح في القاهرة
سنة ٦٧١ هـ حين قدم والده أبو عمرو الى هذه الديار ، وقد أثبتت
المسقلاني ذلك في معرض الحديث عنه ، قال :

” وكان أبوه قد قدم الديار المصرية ومعه امهات من الكتب كصنف
ابن ابي شيبة ومسند ومصنف عبد الرازق والمطلى والتمهيد والاستيعاب
والاستدكار وتاريخ ابن ابي خيثمة ومسند البزار ” (١)

وبعد أن استقر بهم المقام ولد للحافظ ابي عمرو مولى جدي
سماه محمداً ، وقد احضره في سنة مولده على النجيب (١) قبله وأجلسه
على فخذه وكتاه ابا الفتح ، ثم احضره في الرابعة على شمس الدين
المقديسي (٢)

(١) النجيب — هو : أبو محمد بن عبد المنعم بن النجيب عبد اللطيف
ابن عبد المنعم بن الصقيل الحراني بن الشيخ نجم الدين ولد سنة
ثمان وستمئة ، وسمع من ابن تيمية وغيره وتوفى بالاسكندرية في شعبان
سنة احدى وتسعين وستمئة رحمه الله تعالى ١٠ هـ من تاريخ ابن
رسول ” كتاب الذيل على طبقات الخبايلة ج ٢ هـ ٤٦٣ — ٤٦٤ .
مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

(٢) شمس الدين المقديسي : جاء عنه في كتاب البداية والنهاية ج ١٤ هـ
٢١٠ في اخبار سنة ٧٤٤ هـ ما يلي :

” وفي يوم الاربعاء ” عاشر جمادى الاولى توفى صاحبنا الشيخ
الامام العالم العلامة الناقد البارع في فنون العلم شمس الدين محمد
بن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الوهاب المقديسي الخبلسي
تخذه الله برحمته — وكان مولده في رجب سنة خمس وسبعمئة فلم
يلغ الا ربعين وحصل من العلوم ما لم يبلغه الشيوخ والكبار ”

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ هـ ٣٣٢ .

ويحضرهم الى مصر وضعوا عصا الترحال واستوطنوا أرض الكنانة
بهذه العلم والحضارات ، وبدأ الطفل يشب وينمو في رحاب الأب المالم الفقيه
ويستشق عيبره ويتطلع لليوم العظيم الذي يبلغ فيه مبلغ هؤلاء الملماء
ويجلس مجالسهم تحفة المهابة وتشرئب إليه الأعناق ، وما أن شب عن الطوق
وقويت مداركه على الاستيعاب حتى أخذ يخرق من العلم وينهل من بحور
العلماء الجهابذة الأعلام ، أمثال القسطلاني والعز الحرائي وابن الانماطي
 وغيرهم • قال صاحب الدرر الكامنة :

” وسمع على القطب (١) القسطلاني والعز الحرائي (٢)

(١) القطب القسطلاني هو : : محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن
الحسن بن عبد الله بن أحمد بن ميمون التوزري الاصل المكي الدار
القاهري المنزل والوفاة - ولد بمكة المشرفة في سنة اربع عشرة وستمئة
وسمع بها من والده وعلى بن البناء والشهاب السهرودي . . . تفقه
واغنى وطلب الى القاهرة من مكة وتولى بها مشيخة دار الحديث
الكاظمية ، ذكره الحافظ ابو الفتح بن سيد الناس في احفظ من لقيه
في اجوبته عن مسائل ابن ابيك الى أن قال عنه : ” ولي دار -
الحديث الكاملة فقام بها أحسن قيام ولم يزل معظما عند الخاص
والعام • توفي في ليلة الثامن والعشرين من محرم سنة ست وثمانين
وستمئة ودفن بسفح المقطم حضرت جنازته والصلاة عليه • انتهى •
* ذيل تذكره الحفاظ ص ٧٨ * •

(٢) العز الحرائي هو : عبد العزيز بن عبد المنعم بن صقر الحرائي •
عز الدين ابو المز وسند الوقت ، ولد سنة اربع وتسعين
وخمسائة وسمع من ابي حامد ، ويوسف بن كامل ، واجاز له ابن
كليب ، وكان آخر من روى عن اكرم شيوخه ، استوطن مصر الى أن
مات بها سنة ٦٨٦ هـ • * كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ج ٢
ص ٤٦٣ - ٤٦٤ م / السنة المحمدية ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م •

وابن الانماطي (١) وغزى وابن الخيمي وشامية بنت البكري وطلب بنفسه وكتب
بخطه واكثر عن اصحاب الكندي وابن طبرزه * *

ومن اكبر مشايخه الذين كان لهم عظيم الأثر في حياته وتكوين
شخصيته العلمية والادبية استاذ الفقيه الحجة ابن دقيق (٢) العميد الذي
نخرج عليه في أصول الفقه ، وكان يحبه ويؤثره ويصنئ إلى كلامه ويثنى عليه ،

(١) ابن الانماطي - ابو بكر محمد بن الحافظ البارع ابن الطاهر
اسماعيل بن عبد الله الانصارى المصرى ، ولد بدمشق سنة تسع
وستمئة وسمع حضورا من الكندي واكثر عن ابن الحرستاني وابي
ملاعب وخلف ، توفي في ذى الحجة بالقاهرة - * العبر في خبر من
غير - الذهبى ص ٣٤٩ ج ٥ م حكومة الكويت - ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م
(٢) ابن دقيق العميد : محمد بن وهب بن مطيع الامام العلامة شيخ
الاسلام تقي الدين ابو الفتح بن دقيق العميد القشيري المنطوطى
المصرى المالكي الشافعى أحد الاعلام والقضاة ، ولد سنة خمس
وعشرين وستمئة بناحية ينبع وتوفى يوم الجمعة حادى عشر صفر سنة
اثنين وسبعمائة ، وكان اماما متفنا محدثا مجودا فقيها .
* فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٨٤ م النهضة ط ١٩٥١ *
وقد قال عنه ابو الفتح بن سيد الناس المصرى الحافظ في كتاب
طبقات الشافعية ج ٩ ص ٢٠٨

* لم أر مثله فيمن رأيت ولا حملت عن أجل منه فيما رأيت ورويت وكان
للمعلوم جامعا وفي قلوبها بارعا مقدما في معرفة علل الخديث على
أقرانه منفردا بهذا الفن النفيس في زمانه بصيرا بذلك شديد النظر
في تلك المسالك ٠٠٠ لا يشق له غبار ولا يجرى معه سواه فسى
مضمار :

إذا قال لم يترك مقالا لتائل

مصيب ولم يثن اللسان على هجر
وكان حسن الاستنباط للاحكام والمجانين من السنة والكتاب بل سب
يسحر الالباب وفكر يستفتح له ما يستغلق على غيره من الابواب ،
مستعينا على ذلك بما رواه من الملموم مستبينا ما هناك بما حواه من

ما ولد فيه الثقة بنفسه وبمواعبه وملكاته ، ومنهم أيضا بهاء^(١) الدين بن النحاس الذي أخذ عنه اللغة العربية وعلومها وأقاد منه الكثير .

ولم تقف بأبى الفتح نفسه المتعطشة الى المزيد من العلم والمعرفة على أرض الكنانة وعلماؤها وخدمهم بل ارتحل الى بعض الاقطار المجاورة وأخذ عن علمائها ومحدثيها من ذلك رحلته الى دمشق ، وقد أخبر عنها القسطلاني حيث قال :

” ورحل الى دمشق فاتفق وصوله عند موت الفخر^(٢) بن البخاري

مدارك المفهوم ، مبرزاً في العلوم النقلية والعقلية والمسالك الاثرية والمدارك النظرية وكان من المعلوم بحيث يقضى له من كل فن بالجميع .

وسمع بمصر والشام والحجاز على تحرف في ذلك واحتراز ولم يزل حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه ، وقف نفسه على العلوم وتصورها ، ولو شاء العاد أن يحصر كلماته لحصرها ، ومع ذلك فله بالتجريد تخلق ، وبكرامات الصالحين تحقق ، وله مع ذلك في الادب باع وساع وكرم وطباع لم يخل في بعضها من حسن انطباع ، حتى لقد كان الشهاب محمود الكاتب في تلك المذاهب يقول :

” لم تر عيني أدب منه . انتهى ” .

(١) بهاء الدين بن النحاس : محمد بن ابراهيم بن محمد بن ابي نصر الامام العلامة حجة العرب ، بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي شيخ العربية بالديار المصرية ولد في سلخ جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وستمائة بحلب وتوفي سنة ثمان وتسعين وستمائة بالقاهرة ، وتخرج به جماعة من الأئمة .

(٢) قوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ٣٥٢ م النهضة ط ١٩٥١ م .

(٢) الفخر بن البخاري : فخر الدين ابو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن قدامة المقدسي المولود سنة ست وتسعين وخمسائة والمتوفى سنة تسعين وستمائة عرف بابن البخاري لان اياه اقام ببخار مدة يشتمل بالخلاف على الرضى النيسابوري كما ذكره ابن رجب في ترجمة والده . ” ذيل تذكرة الخطط للذهبي ص ١٧ القدس / دمشق / ط ١٣٣٣ - ١٣٣٤ هـ ” .

فقلّم لذلك وأكثر عن الصوري وابن عساكر وابن الجاور وغيرهم وأجاز له جمع جم
في العراق وأفريقية وغيرها ولعل مشيخته يقاربون الالف *

أما ثقافته ابن الفتح ومبلغ علمه وأدبه وسلوكه العام والخاص في الحياة
فقد تحدث عنه الكثيرون من المعاصرين له أو المترجمين لحياته *

فقد قال الكمال الأد فوى عنه :

* حفظ التبييه في الفقه وصنف في السيرة كتابه المسى عيون الاثر
وهو كتاب جيد في بابه وشرح لشرح الترمذى ولو اقتصر فيه على فن الحديث
من الكلام على الاسانيد لكل لكنه قصد أن يتيح شيخه ابن دقيق الميسر
فوقف دون ما يريد * (١) *

فوهبة الفهم والحفظ والاستيماپ والمقدرة على انتقاء الافكار
واستبساط الاحكام والتأليف والجمع والترتيب من الأشياء التي اشتهر بها أبو
الفتح وشهد له بها كثير من الباحثين *
قال الامام الذهبي في معرض الحديث عن أبي الفتح :

* ونسخ بخطه وانتقى ولازم الشهادة مدة وكان طيب الاخلاق بساما
صاحب دعابة ولعب صدوقا في الحديث حجة فيما ينقله له بصر ناقد فسى
الفن وخبرة بالرجال ومعرفة بالاختلاف ويد طولى في علم اللسان ومحاسنه
جمعة ... الى أن قال :

* ولو أكب على العلم كما ينبغي لشدة اليه الرجال ولكنه كان
يتلمس عن ذلك بباصرة الكتبة وكان النظم عليه بلا كلفه وكان بساما كيسا
مشارا لا يحملهما *

وقال عنه البرزالي :

” وكان احد الاعيان معرفة واتقاناً وحفظاً للحديث وتفهماً في علله
وأمانيداً عالماً بصحيفة وسقيمة مستحضراً للسيرة له حظ من العربية حسن
التصنيف صحيح العقيدة سريع القراءة جميل الهيئة كثير التواضع طيب
المجالسة خفيف الروح ظريفاً كيساً له الشعر الرائق والنثر الفائق وكان محباً
لطلبه الحديث ولم يخلف في مجموعه مثله ” .

والذى ينظر في غزله ونسيبه ومدحه في ديوانه المسمى بشرى اللبيب
بذكرى الحبيب ، وفي بعض الأبيات المتأثره في كتب التراجم يجد شعراً رقيقاً
ورائقاً حقاً ، وكذلك نشره متفوقاً على غيره بالعدوية والسلاسة وعدم التكلف .

ومن تحدثوا عن علم ابن الفتح وأدبه - القطب - قال عنه :
” إمام محدث حافظ أديب شاعر يارع جمع وألف وخرج وأتقن
وصارت له يد طولى في الحديث والأدب مع الاتقان ثبت فيما ينقل ويضبط
من أحسن الناس محاضرة ” .

وقال عنه ابن فضل الله العمري :
” كان أحد أعلام الحفاظ وإمام أهل البلاغة ، الواقفين بعكاظ بحر
مكتار وحبر في نقل الآثار وله أدب أسلس قياداً من الغمام بأيدي الرياح
وأسلك مراداً من الشمس في خيمة الصباح ” .

وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فهذا هو الصلاح الصفدى
الذى كان منحرفاً عنه - كما قالوا - يشهد له بالفضل تائلاً :

• كان حافظا بارعا متقنا في البلاغة ناظما ناثرا مترسلا حسن الخط جدا حسن المحاورة لطيف العبارة •

وما يدل على مقدرة ابي الفتح الذهنية وسعة اطلاعه وارواه عماد الدين بن القيسراني (١) ، قال :

• وكان ابن دقيق العيد اذا حضرنا درسه وجاء ذكره أحد من الصحابة والرجال قال : أي ترجمة هذا يا أبا الفتح ؟ فيأخذ في الكلام ويسرد والناس سكوت والشيخ مصغ الى مايقول ؟ •

واستمر القيسراني في الحديث عن ابي الفتح الى أن قال :

• وكان صحيح القراءة سريعا لم اسمع انصح منه ولا اسرع وكان يكتب المصحف في جمعة واحدة وكتب عيون الاثر في عشرين يوما - وقال حاكيا عنه :

• قال لي لم أكتب على احد ولم يكن لي في العروض شيخ فظلمت فيه جمعة فوضعت فيه تصنيفا •

ويواصل القيسراني الحديث عن ابي الفتح الى أن قال :

• وله مختصر السير سماه نور العيون ، وبشرى اللبيب بذكرى الحبيب - قصائد نبويه وشرحها في مجلد ، وله منح المدح ، والمقامات العملية في الكرامات الجليلة وولى درس الحديث بالظاهرية ومدسة ابي حلية ومسجد الرصد ، وخطابة جامع الخندق وله رزق بالديار المصرية وراتب بصفد (٢) •

(١) راجع الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٣٢ - ٣٣٦ •

وإذا أحب الله عبدا حبه الى خلقه وجعل له القبول والاحترام
في قلوب جميع الناس ، وذلك بدمائة اخلاقه وطهارة نفسه وحسن معاملته ،
الى جانب المواهب العلمية والادبية * .

وقد كان نصيب أبي الفتح من محبة الناس واحترامهم له كبيرا ،
وقد تفوق في الاخلاق والعلم معا ، وقد اثبت الصفدى ذلك عند الحديث
عنه ، قال :

ما رأيت أحدا له مثل حظه ما رآه أحد الا أحبه كان علم الدين
الدوادارى يحبه ويلزمه كثيرا ودخل به الى المنصور لاجين وقد مدحه
بقصيدة فرتبه في جملة الموقعين فرأى الشيخ الملازمة صحبة فسأل الاعفأ
فقال اجعلوا معلومه راتبا فزال يتاوله الى أن مات ، وكان الكمالى يشام
معه وكان كريم الدين يميل اليه كثيرا وكان أرغون النائب يتعصب له * .

وفي كلام الحافظ الذهبى عنه أيضا ما يثبت هذا التفوق الأخلاقى
الذى اكسبه المحبة وانزله منزلة الاحترام ، في نفوس الخلق ، قال واصفا له :
* ذو الفنون والذهن الوقاد كان عديم النظير في مجموعه راسا فى
الادب قل أن ترى الميون مثله فى فهمه وعلمه وسيلان ذهنه وسعة معارفه
وحسن حظه وكثرة أصوله وكان طيب الاخلاق ذا كرم وبذل واعارة لكتبه تخرج
به جماعة * (١) .

الى هنا نرى الجانب المتفوق المشرق من نشأة وحياة وثقافة أبى
الفتح بسن سيد الناس * .

ففى نشأته : رأينا النشأة الحسنة فى كنف الاسرة الكريمة ونحست
سمع وبصر الاب العالم الاديب ، ولما كبر وبلغ مبلغ الرجال رأينا الحياة

المهادثة للمطمئنة العامرة بالحب والتقدير .

وفى ثقافته رأينا العلم الوافر الغزير والادب الفائق العذب

الراقي .

ومهما كثرت فضائل الانسان وعلا قدره وتعددت محامده قل أن

يسلم من الانتقاد فالكمال لله وحده وقد يما قالوا :

كفى المرء نبلا أن تعد معاييه .

فقد عد بعض المعاصرين لابي الفتح عليه بعض المآخذ ولم يسلم

من انتقادهم ، وهذه طبيعة الحياة فالناس بين قادح ومادح .

قال الكمال جعفر عنه :

” كان يعاشر بعض الاكابر فوقع له من البدر بن جماعة زجر

فصرفه عن إعادة الحديث بالجامع الطولوني ”

وقال عنه الصفدي :

” ولو كان اشتغاله على قدر ذهنه لبلغ الغاية القصوى ولكنه

كان يتلهم عن ذلك بمعاشرة الكبار ”

وقال عنه الذهبي :

” ولو أكب على العلم كما ينبغي لشدت إليه الرجال ولكنه كان

يتلهم عن ذلك بمعاشرة الكتبة ”

وقال عنه الذهبي ايضا في معجمه المختصر :

” أحد ائمة هذا الشأن كتب بخطه المليح كثيرا وخرج وصنفوا -

وصحح وعلل وفتح واصل وقال الشعر البديع ، وكان حلوا النادرة حسن

المحاضرة جالسته وسمعت قراءته وأجاز لي مروياته عليه مأخذ في دينه وهدى

فالله يصلحه وإيانا . . . * .

وقال عنه ابن كثير :

* اشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى في الحديث والفقه والنحو وعلم السير والتاريخ وغير ذلك وقد جمع سيرة حسنه في مجلدين وقد حرر وجر وأجاد وأفاد ولم يسلم من بعض الانتقاد ، وله الشعر والنثر الفائق وحسن التصنيف والتصنيف والتعبير وجودة البديهة وحسن الطوية والمعقيدة السلفية والافتداء بالأحاديث النبوية ، وتذكر عنه شئون أخر الله يتولاها فيها ، ولم يكن بمصر في مجموعة مثله في حفظ الاسانيد والمتون والعلل والفقه والملح والاشعار والحكايات * .

وقال عنه صاحب البدر السافر :

* وخالط اهل السنه وشراب المدام فوقع في الملام ورشيق بسهام الكلام ، والناس محادن والقرين يكرم ويهان باعتبار المقارن * .

قال :

* ولم يخلف بعده في القاهرة ومصر من يقوم بقضونه مقامه ولا ممن يبلغ في ذلك مرامه اعقبه الله السلامة في دار الاقامة * (١) .

بهذا نرجو أن نكون قد ألمنا إمامة سريعة بنشأة وحيياة وثقافة أبي الفتح ، وعرضناها عرضا موجزا في نظر المعجبين به الذين ينفضون أبصارهم عن كل عيب ولا يذكرون إلا المحاسن ، وفي نظر الآخرين الذين يعدون المحاسن الكثيرة ولا ينسون المساوي القليلة .

وكفى أبا الفتح فضلا أن مساومه لا تعدو أصابع اليد * .

وكانت نهاية حياة أبي الفتح بن سيد الناس في شعبان
سنة ٧٣٤ هـ أثر علة مفاجئة لم تسلمه، ويروى أنه قام من موضعه
ثم سقط على الأرض ولقف ثلاث لظات ثم أسلم روحه إلى بارئها، ودفن
عند الامام الشافعي بجوار ابن أبي جمرة، أنزل الله على الجميع شأبيب
رحمته •

ويروى أن نعشه كان حافلا بالمودعين والمشييعين من عظماء
القوم وعلماهم وأعيانهم •

:: الفصل الخامس ::

~~~~~

## آثاره الأدبية

من آثار ابن سيد الناس الأدبية الخالدة مؤلفاته الثلاث - وهي كتاب منح المدح ، وكتاب المقامات العلية في الكرامات الجليلة ، وكتاب يشري اللبيب بذكرى الحبيب .

وكل هذه الكتب مخطوطة حتى الآن وتوجد منها نسخ بدار الكتب المصرية ونسخ مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

وقد تمت بتصوير النسخ الثلاث على نفقتي الخاصة حتى أتمكن من وصفها وأخذ مقتطفات منها باعتبارها آثاراً أدبية خالدة له .

وله أيضاً كتاب عبون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ، وهو كتاب مطبوع سنقف معه قليلاً في الصفحات التالية .

### ١ - منح المدح :

وصف موجز لهذا الكتاب وأخذ بعض المقتطفات منه .

يقع كتاب منح المدح في أربع وتسعين ورقة مصورة وهي تساوي مائة وثمانين وثمانين صفحة .

وقد بدأه صاحبه بقصيدة ميمية مطولة في المدح اشتملت على مائة وسبعة عشر بيتاً من الشعر ، وذكر في هذه القصيدة حوالي مائة وتسعين من الصحابة والصحابيات ممن مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته ،



أو رثوه بعد وفاته .

وبعد الانتهاء من القصيدة تعرض بالترجمة والتعريف في كتابه لكل صحابي أو صحابية ورد ذكر اسمه في القصيدة واتباع ذلك بأبسط ما اقتطعت من أشعارهم ، ويظال معنا في هذا الكتاب أنه مرتب في تبويبه على حروف المعجم ، فأول باب فيه هو باب الهمزة ، وآخر باب فيه هو باب الهاء .

ويذكر مؤلفه على هذا الترتيب كل صحابي أو صحابية مسدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو رثاه في الباب الذي يقع فيه أول حرف من اسمه ، وشيئا من شعره ويأتي بالأسانيد التي تثبت صحة هذا الشعر ونسبته إلى قائله زمانا ومكانا . ويعقب ذلك بشرح وتوضيح لبعض الكلمات الخريبة في كل قصيدة يوردها ، ويستند في هذا الشرح إلى قواميس اللغة العربية المشهورة مثل ابن سيده وغيره .

ويذكر بعد ذلك المناسبة التي قيل فيها هذا الشعر وتعليق الرسول صلى الله عليه وسلم عليه ، إذا قيل في حياته .

من كل ما تقدم يتضح لنا أن موضوع الكتاب هو : مقتطفات من شعر الصحابة والصحابيات في الرسول صلى الله عليه وسلم والتعريف بهم .

وهذا ما قاله المؤلف نفسه في كتابه المخطوط من حديثه طويلا

قال :

ثم عرض لي بعد ذلك معنى لم أسبق فيما علمت إليه ، ولا دل أحد يقدمني عليه ، من ذكر ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة نجوم الهدى ، ورجوم المعصدين لتكون لنا بهم القدوة وفيهم رض الله عنهم



الاسوة \* (١) \*

وإذا رجعنا الى قصيدته الميمية التي صدر بها الكتاب فأنشأ  
نجده قد بدأها كمادة أمثاله من شعراء المديح في المصور الاخيرة  
- بالبكاء على الاطلال وذكر الاحبة الظاعنين \*

قال في مقدمتها :

دم من ألمَّ بها فصاح مسلماً  
ويكى على اطلالها أقوى دماً  
وترنمت نغماته بفقرامه  
فأجابه عنها الصدى مترنماً  
هيهات لا يشفى الصدى رجح الصدى  
يادارُ مالي لا أحس مخيماً

الى أن قال :

فأحبس مطيئك أو فخل زمامها  
واقطع رجاءك من عسى ولعلما  
وصن المطامع عن زعانف كلما  
خاطبتهم خاطبت رسماً أعجماً  
أو سمت برفقاً خلباً أو رويت أن  
ترد الشراب من السراب على ظمأ  
وتخلص تخلصاً حسناً من البكاء على الاطلال الى مدح الرسول صلى الله  
عليه وسلم بهذا البيت :

وادمع الاله يجب دعاك وارح من

انعامه ما شئت تدرك منعماً

(١) كتاب منح المدح / مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ومصورة بمعهد  
المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٨٣٧ / أدب \*

ثم قال :

وصل الرجاء بحبل من الآؤه  
تعطى الجزيل من الهدى بعد العمى  
وامدح نبيا يرضى ربه مدحه

.....

ويعمد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم تتناول القصيدة من  
مدحوا الرسول وشيئا من مآثرهم \*

ولأخذ صورة وصفية مكتملة لهذا الكتاب ومادته الأدبية نقتطف  
شيئا من الأشعار والتراجم منه سائرين على نفس منهجه في التوبيخ  
والترتيب على حروف المعجم \*

١ - حرف الهمزة :

من الأسماء التي أوردتها في هذا الحرف - أسود بن مسعود  
الثقفي - وقال عنه :

هو الذي حارب ظبيان بن كداد عند رسول الله صلى الله عليه  
وسلم في الحديث الطويل المذكور وفوده فيه \* \* \*

وأشده له هذه الأبيات :

أسميت أعبدُ ربي لا شريك له  
رب العباد إذا ما حصل البشر  
لا أبتغي بدلا بالله أعبده  
مادام بالجزع من أركانه حجر

إِنَّ الرِّسُولَ الَّذِي تَرَجَى نَوَاطِلَهُ

عِنْدَ الْقَحُوطِ إِذَا مَا أَتَحَطَّ الْمَطَرُ

وَذَكَرَ فِي هَذَا الْحَرْفِ أَيْضًا - أُصِيدَ بِنِ سَلْمَةَ - وَقَالَ عَنْهُ :

\* ابْنُ أَرِيْقَطٍ <sup>(١)</sup> بِنُ عَيْبِدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بِنِ كَلَابِ بْنِ رَبِيعَةَ ، أَسْلَمَ

عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ \* .

وَيُرْوَى لَهُ هَذِهِ الْآيَاتُ :

أَنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ

حَتَّى عَلَا فِي مَلِكِهِ فَتَوَحَّشَا

بَعَثَ الَّذِي لَا مِثْلَهُ فِيمَا مَضَى

يَدْعُو لِرَحْمَتِهِ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا

ضَخَمَ الدَّسِيمَةَ كَالْفَرْزَالَةَ وَجْهَهُ

تَرْنَا تَأْزُرُ بِالْمَكَامِ وَأَرْتَدِي

فَدَعَا الْعِبَادَ بِدِينِهِ فَتَتَابَعُوا

طَوْعًا وَكَرْهًا مَقْبَلِينَ عَلَى الْهَدْيِ

وَذَكَرَ - أَمْرُ الْقَيْسِ بْنِ عَابِسَ - وَقَالَ عَنْهُ :

\* أَمْرُ الْقَيْسِ بْنِ عَابِسَ الْكِنْدِيِّ لَهُ صُحْبَةٌ وَشَهِدَ فَتَحَ النَّجْمِيْرَ

بِالْيَمَنِ ثُمَّ حَصَّنَ الْكِنْدِيِّينَ الَّذِينَ أَرْتَدَوْا \* وَهُوَ الْقَائِلُ :

قَفَّ بِالْدِيَارِ وَقُوفَ عَابِسَ

وَتَنَانٌ إِنَّكَ <sup>(٢)</sup> غَيْرَ أَنَسِ

(١) جاء في كتاب الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ج ١ ص ٦٨ - ابن

قريظ - بدل أريقط - وبقية الترجمة متفقة مع ترجمة ابن سيّد

الناس ، ولم يذكر أبيات الشعر \* .

(٢) جاءت له بعض هذه الأبيات في كتاب الإصابة ج ١ ص ٨٩ - بتعديل

كلمة " إنك " بكلمة " آنة " \* .

لعبت بهن العاصمفا  
ت الراحات من الزوامس  
ماذا عليك من الوقو  
ف بهامد الطللين دارس  
يارب باكية عليّ ومنـ  
شد لي فسي المجالس  
أو قائل يا فارسا  
ماذا رزئت من الفوارس  
لا تعجبوا ان تسمعوا  
هلك امرؤ القيس بن عابس

٢ - حرف الباء :

أور في هذا الحرف - بجير بن زهير بن ابي سلمى - (١) وقال عنه :  
روينا عن ابي عمر قال : بجير بن ابي سلمى ، واسم ابن سلمى  
ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن لاضم بن  
عثمان ، كان شاعرا محسنا هو واخوه كعب ، وأما أبوهما فأحد المبرزين  
الفحول من الشعراء . . . . .

ونسب اليه شعرا يوم فتح مكة منه هذه الابيات :

---

(١) قال عنه صاحب الاصابة ج ١ ص ١٤٢ - أخو كعب بن زهير  
الشاعر المشهور ، وأورد له أبيات الشعر المذكورة مع زيادة  
بيت قبل البيت الاخير ، نصه :  
صبحناهم بألف من سليم

وألف من بني عثمان وافس

فرحنا والجياد تجول فيهم  
بارمّاح مقومه الثفاف  
فأبنا غنمين بما اشتهينا  
وأبوا نادمين على الخلاف  
وأعطينا رسول الله منا  
مواثيقا على حسن التصافي  
وقد سمحوا مقالتا فهموا  
غداة الروح منا بانصراف

وذكر - بجير بن بَجْرَة (١) - وقال عنه :  
" بجير بن بجرة من قبيلة طى شهد يوم الفتح . . . " وأورد له  
شعرا منه هذه الابيات :

نضارب بالبطحاء دون محمد  
كتائبهم كانوا أعق وأظلمنا  
ويوم حنين قد شهدنا هياجه  
وقد كان يوما نافع الموت مظلمنا  
براياتنا حول النسبى محمد  
ولم يجدوا إلا كميّتا مسوما  
إذا ما استلناهن يوما لوقمة  
فليست بمنسودات أو تزرف الدما

---

(١) قال ابن حجر في الإصابة ج ١ ص ١٤٢ - بن بجرة - بفتح اوله  
وسكون الجيم ، الطائي ، قال عنه ابن عبد البر: له في قتال أهل  
الردة آثار وأشعار ذكرها ابن اسحاق \*

فكانت لنا النعما على الناس كلهم  
قضا بنى عادل حيث حكما

٣ - حرف الحاء :

جاء في هذا الحرف من الصحابة الكرام رضى الله عنهم - حمزة  
ابن عبد المطلب - وقال عنه :

" حمزة بن عبد المطلب بن هاشم ، عم رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وأخوه من الرضاعة ، أرضعتها ثويبة الأسلمية ، يكنى أبا عماره وأبنا  
يعلى <sup>(١)</sup> أسلم في السنة الثانية من الهجرة وقبل في السادسة ، شهد  
حمزة بدره وأبلى فيها بلاء حسنا ، وشهد أحدنا وقتل يومئذ شهيدا " .

وذكر له شعرا منه :

حمدت الله حين هدى فؤادى  
الى الاسلام والدين الخفيف  
لدين جاء من رب عزيز  
خير بالعباد بهم لطيف  
اذا تليت رسائله علينا  
تحدردمع ذى اللب الحفيف  
رسائل جاء أحمد من هداها  
بآيات مبينة الحروف  
وفي هذا الحرف جاء أيضا - حسان بن ثابت <sup>(٢)</sup> - وقال عنه :

(١) قال عنه صاحب الاستيعاب ج ١ ص ٢٧ - كان يقال له أسد الله

وأسد رسوله " . وسرد له نفس الترجمة مع اختلاف قليل .

(٢) جاء عنه في كتاب الاصابة ج ١ ص ٣٢٥ . كان شاعرا الانصار فسي

” كان يقال له شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى عن عائشة  
رضي الله عنها أنها وصفت الرسول فقالت : كان والله كما قال شاعره حسان  
ابن ثابت رضي الله عنه :

متى يبدو في الدجى البهيم جبينه  
يلج مثل مصباح الدجى المتوقد  
فمن كان أو من قد يكون كأحمد  
نظام لحق أو نكسال للمحد

٤ - حرف الزاي :

تحت هذا الحرف أورد - زيد بن حارثة - وقال عنه :  
” زيد الحب بن حارثة بن شرحبيل بن عبد العزى بن امرئ القيس  
ابن النعمان بن عامر بن عبدود ساه أبوه بهنمه ، وأم زيد سعدى بنت ثعلبة  
من بنى معن من طي ”

وروى قصة أسر زيد وبيعه ووجوده بمكة في كف محمد صلى الله عليه  
وسلم ، الى أن قال :

” فحج ناس من كلاب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه

فقال أبلغوا أهلى هذه الابيات فإنى أعلم أنهم قد جزعوا عليّ :

أحنُّ إلى قومى وإن كنت نائياً

فإنى قطين<sup>(١)</sup> البيت عند المشاعر

---

الجاهلية ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في أيام النبوة ، وشاعر

اليمن كلها في الاسلام .

انظر الاستيعاب في معرفة الاصحاب ج ١ ص ٥٤٥ - ٥٤٦ فقد جاء

(١)

فكفوا عن الوجد الذي قد شجاكم

ولا تعملوا في الأرض نهي الأباغر

فإني بحمد الله في خير أسرة

كرام محمدي كاسراً بعد كاسر

قال فانطلق الكلبيون فاعلموا اباہ فقال ابني ورب الكعبة ووصفوا له موضعه وعند من هو ، فخرج حارثة وكعب بفدائه وقدما مكة وسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقيل هو في المسجد فدخلا عليه فقالا يا بن عبد الله يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومہ انتم اهل الحرم وجيرانہ وعند بيته تفكون العاني وتطمعون الاسير جئناك في ابنا عندك فامن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإنا سنرفع لك في الفداء ، قال ما هو قالوا زيد بن حارثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلاً غير ذلك قالوا ما هو قال ادعوه فخيروه فان اختاركما فهو لكما بخير فداء وان اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحدا ، قال قد زدتنا على النصف وأحسننت ، قال فدعاه فقال هل تعرف هؤلاء ، قال نعم قال من هما قال هذا أبى وهذا عمي قال فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحدا أنت منى بمكان الاب والعم ، فقالا ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية وعلى ابيك وعمك وأهل بيتك قال نعم فإني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي اختار عليه أحداً ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني أرتسه ويرثني ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما \* .

في "تعهد البيت" بدل "قطين البيت" وبقية الكلام عن زيد متفق مع ما ذكره ابن سيد الناس .



تعلیق :

لوردت هذا الكلام عن زيد - مع ما قد يحسه القارئ به من طول -  
لما له من المعاني الرفيعة والادب العالي في الكرم والشهامة والنبيل وحسن  
المعاملة ، هذا من ناحية المضمون .

أما من ناحية الشكل والتعبير فهو في منتهى الجمال والروعة  
والحكمة وفصل الخطاب ، انظر الى رقة المخاطبة وتقسيم العبارة في قولها :

• أنتم أهل الحرم ، وجيرانه ، وعند بيته ، تفكون العائس  
وتطمعون الأسير .

وأجمل من هذه المخاطبة وأرق منها عبارة وأسلوباً قول الرسول  
صلى الله عليه وسلم في الرد عليهما :

• فهلا غير ذلك ؟ قالوا ما هو ؟ قال ادعوه فخيروه فإن اختاركما  
فهو لكما بغير فداء وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى  
أحدا . ( ٢٢ )

ونجد فخامة العبارة وصدقها وأصالتها مع الإيجاز في ردهما الأخير  
الأخير على مقالة الرسول الطيبة التي أثلجت صدورهم . فان اختاركما فهو لكما  
بغير فداء . فجاءت عبارتهما الصادقة الموجزة المعبرة : قد زدنا على  
النصف وأحسنتم . ( ٢٣ )

فهذه العبارة تدل على اصالة البدويين واهتزازهم للجميل واثبات  
الفضل لأهله .

٥ - حرف الضاد :

أورد فيه - ضرار بن الأزور - وقال عنه :  
" ضرار بن الأزور مالك بن أوس بن خزيمة بن ربيعة بن مالك بن  
ثعلبة بن ذودان بن أسد ، كان ضرار فارسياً شاعراً وهو الذي يقول حين  
أسلم :

(١)  
جعلت القداح وقذف القيا

ن والخمر تهلية وابتهالا

وكري المحبر في عمره

وجهدى على المشركين القتالا

وقالت جميلة بدلتا وطرحا

ت أهلك شتى شالا

فيارب لا أعجنن صفقتى

وقد بعث أهلى وسالى بذا لا

قال أبو عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبتك صفقتك يا ضرار \*

وأورد - ضوء اليشكري - وقال عنه :

" ذكره سيف بن عمر التميمي في الفتوح قال عنه :

(١)  
انفتحت كتب التراجم على ترجمة ضرار كما جاء في الاصابة ج ٢ ص ٢٠٠  
والاستيعاب ج ٢ ص ٢٠٣ - وهناك اختلاف في أبيات الشعر فقد  
جاءت في الاستيعاب :

تركت الخمر وضرب القدا

ح واللهم تعللة وانتهالا

فيارب لا تغبن صفقتى

فقد بعث أهلى وسالى بذا لا

ومنهم من ينشدها :

كان باليمامة رجال مكتتمين بإسلامهم منهم ضوء<sup>(١)</sup> اليشكري فقال  
ضوء في ذلك :

ياسعاد الفواد بنت أشمال  
طال ليلى لفتنة الرجال  
إنها ياسعاد من حدث الدهر  
ر عليهم كفتة الدجال  
فتن القوم بالشهادة والله  
عزیز ذو قوة ومحال  
إن ديني دين النبي وفي القو  
م رجال على الهدى أمثال

٦ - حرف العين :

ذكر فيه - عبدالله بن جحش - وقال عنه :  
عبدالله بن جحش بن رثاب بن يعمر بن صيرة بن مرة بن كسير<sup>(٢)</sup>  
ابن غنم بن دودان بن أسد بن خريصة يكنى أبا محمد ، وأمه أميمة  
بنت عبدالمطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل عبدالله بن جحش  
يوم أحد شهيدا قتله أبو الحكم بن الاخنس بن شريف الثقفي ودفن هو  
وحمة بن عبدالمطلب وهو خاله في قبر واحد \*  
وأورد له أبياتا من الشعر منها :

خلمت القداح وتذف القيا

ن والخراشربها والثمالا

الاستيعاب ج ٢ ص ٢٠٣ \*

(١) ذكره صاحب الاصابة ج ٢ ص ٢٠٨ - وذكر الابيات مع زيادة

بيت نصه ::

تعدون قتلا في الحرام عزيمة  
وأعظم منه لو يرى الرشد راشد  
صدودكم عما يقول محمد  
وكفرٌ لله والله راءٍ وشاهد  
وإخراجكم من مسجد الله أهله  
لثلا يرى في البيت لله ساجد  
فلأنا وإن غيرتمونا يقتله  
وأرجف بالاسلام باغ وحاسد  
شفيئا من ابن الحضري وماحنا  
بنخلة لما أوقد الحرب وانسد

وذكر عبد الرحمن بن ذى الأجرّة<sup>(١)</sup> — وقال عنه :  
" كان أحد الرهط الذين توجهوا الى قتل الأسيود المنس بأمر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه أخوة يزيد وفي ذلك يقول عبد الرحمن :  
لعمري وما عمري على بهين  
لقد جزعنت قيس لقتل الأسيود  
وقال رسول الله سيروا لقتله  
على خير موعود وأسعد أسعد

---

اهلك القوم محكم بن طفيل  
ورجال ليسوا لنا برججال  
(١) ذكره صاحب الاستيعاب ج ٢ ص ٢٦٣ — وقال عنه : ابن رباب بن  
يعمر بن صيره • بالياء الموحده • بخلاف ابن سيد الناس —  
الذي أوردها — صيره — بالياء المشناه •  
(٢) قال صاحب الاصابة ج ٢ ص ٣٩٠ — ابن ذى الآخرة الثمالى — بدل  
الأجرّة — وذكر له نفس الترجمة وبيات الشعر ومناسبتها المذكورة •

فسرنا إليه في فوارس بهمة  
على خير أمر من وصاة محمد  
وصرنا إليه كلنا ذو حفيظه  
وتيدرنا قيس بفضب مهنة

وذكر - العباس (١) بن مرداس السلمي - وقال عنه :  
" العباس بن مرداس السلمي ، ومرداس بن أبي عامر بن جارية -  
يكنى أبا الفضل اسلم قبل فتح مكة بيسير وله في يوم جنين وما بعده اشعار  
حسان ذكر ابن اسحاق وغيره جملة منها وهو القائل :  
يا خاتم النبيا إنك مرسل  
بالحق كل هدى السبيل هداكا  
إن الاله بنى عليك محبة  
من خلقه ومهدا أسماكا

٧ - حرف الفاء :

ذكر فيه - فروة بن مسيك - وقال عنه :  
" ويقال له بن مسيك والاكتر ابن مسيك بن الحارث بن سلمة بن  
الحارث ، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة تسع وكان من وجوه  
قومه ، عن ابن اسحاق قال : ولما توجه فروة بن مسيك الى رسول الله  
منارقا لمؤك كده قال :

لما رأيت ملوك كدة أعضت  
كالرجل حار الرجل عرف نساها

(١) ذكره ابن حجر في الاصابة ج ٢ ص ٢٧٢ - ولم يذكر ابيات

شعره هذه \*

قرنت راحلتى أوم محمدا

أرجو فواضلها وحسن ثوابها (١)

وذكر - فضالة بن عَمِيْر - وقال عنه : " فضالة بن عمير بن الملوح الليثى ، روينا عن ابن هشام قال وحدثني من اثنى به من أهل الرواية فـسـ اسناد له عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس فقد ذكر خبراً ثم قال وحدثني ابن فضالة بن عمير بن الملوح أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله أخضاله قال نعم فضالة يا رسول الله ماذا كنت تحدث به نفسك قال لا شيء \* كنت أذكر الله قال فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره - فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت اتحدث اليها فقالت هلم إلى الحديث فقلت لا وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا

يأبى عليك الله والاسلام

لو مارأيت محمداً وقبيلة

بالفتح يوم يكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيننا

والشرك يفسى وجهه الإِظلام (٢)

(١) ذكره صاحب الاصابة ج ٣ من ٢٠٠ - وذكر له هذه الابيات بتعديل

في الشطر الاول من البيت الثانى هكذا :

يمت راحلتى أمام محمد \* - بدل - :

قرنت راحلتى أوم محمدا \*

(٢) جاءت قصته هذه في الاصابة ج ٢ من ٢٠٢ - وكذلك الابيات مع

اختلاف في بعض الكلمات ، مثل - جنوده - بدل - قبيلة - فسى الشطر الاول من البيت الثانى - والبيت الثانى في الاصابة جاء هكذا :

٨ — حرف القاف :

ذكر فيه — قيس بن عبد الله — " النابغة الجعدي " وقال عنه :  
" النابغة الجعدي واسمه قيس بن عبد الله بن عمرو بن عدس بن  
ربيعة بن جعد بن كمي بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وكان قديما  
شاعرا محسنا طويل البقاء في الجاهلية والاسلام ، وهو عندهم أحسن من  
النابغة الذبياني ، وقال في الجاهلية كلمته التي أولها :

الحمد لله لا شريك له

من لم يقلها ففسه ظلما

وما أورد له من الشعر هذه الابيات :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى

ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

وجاهدت حتى ما أحس ومن معي

سهيلا اذا ما لاح ثم تهورا

أقيم على التقوى وأوصى بفعلها

وكت من النار المخوفة أحذرا (١)

وذكر — قيس بن سعد : وقال عنه :

" ابن سعد بن عبادة بن ديلم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة

بن طريف بن الجموح يكنى أبا الفضل ، وأمه فكيهة بنت عبيد بن ديلم بن

---

لرأيت رسول الله أصلح بيننا

والشرك يخشى وجهه الاظلام

(١) ذكره صاحب الاصابة ج ٢ ص ٣٧ . ولم يذكر له هـ —

الابيات .

حارثة ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح ، وصحب  
قيس بن علقمة بن طالب وشهد معه الجمل وصفين والنهروان هو وقومه وهو  
القائل يوم صفين واللواء بيده :

هذا اللواء الذي كنا نخفيه

مع النبي وجبرئيل لنا مدد

ما ضر من كانت الانصار عينته

الا يكون له من غيرهم أحد

قوم اذا حاربوا طالت أكفهم

بالمشرفيه حتى يفتح البلد (١)

٩ - حرف الكاف :

ذكريه - كعب (٢) بن مالك - وقال عنه :

" ابن مالك بن كعب واسمه عمرو بن القين بن كعب بن سواد  
يكنى أبا عبد الله وقيل أبا عبد الرحمن شهد العقبة الثانية ولم يشهد بدرا ،  
اليسه النبي صلى الله عليه وسلم لامته يوم أحد وكانت صفراء ، وليس عليه  
السلام لامة كعب فجح كعب أحد عشر جرحا " .

وأورد له هذه الابيات :

وفينا رسول الله نتيج أسرته

اذا قال فينا القول لا يتطلع

(١) ترجم له صاحب الاستيعاب ج ٣ ص ٢٢٤ - ٢٣٠ وأورد له

أبيات الشعر هذه ٢

(٢) ترجم له صاحب الاستيعاب ج ٣ ص ٢٨٦ - ٢٩٠ ولم يذكر

هذه الابيات بل ذكر له شعرا آخر .



تدلى عليه الروح من عند ربه  
ينزل من جو السماء ويرفع  
نشأته فيما نريد وقصرنا  
إذا ما اشتهدى أنا نطيع ونسمع

١٠ - حرف اللام :

ذكر فيه - لبيد بن ربيعة - وقال عنه :  
" ابن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ، روينا من حديث  
ابى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( مامعنااه )  
أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد :  
ألا كل شيء ما خلا الله باطل \*

قال أبو عمرو هو شعر حسن فيه ما يدل على أنه قاله فى الاسلام وهو  
قوله :

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه  
إذا كشفت عند الاله المحاصل

وقد قال أكثر اهل الأخبار ان لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم ،  
وقال بعضهم لم يقل فى الاسلام الا قوله :  
ما عاتب المرء الكريم كنفسه  
والمرء يصلحه القرن الصالح (١)

---

(١) جاء فى الاصابة ج ٣ ص ٣٢٦ :

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه  
والمرء يصلحه الجليس الصالح

١١ - حرف الميم :

ذكر فيه - مالك بن حبيب - وقال عنه :

مالك بن حبيب أبو محجن وقيل عبد الله بن حبيب بن عمر بن عمير  
ابن عوف بن عقده - الثقفى كنيته أسلم حين أسلمت ثقيف وسمع من النبي صلى  
الله عليه وسلم وروى عنه وكان من الشجعان الأبطال فى الجاهلية والاسلام \*

وروى له أشعارا منها هذه الابيات :

لَأُضْرِبَنَّ بِالْحَسَامِ الْمَرْهَفِ

عن دين رب ماجدٍ مؤلف

بين قلوب طالسا لم تألف

حتى آتاهما ببيان الشرف

محمدٌ ذو الفضل والترف

من عند رب جاء بالتطف

وذكر - مالك بن النبهان (١) : وقال عنه :

\* أبو الهيثم بن النبهان بن مالك بن عبيد بن عمر بن عبد الاعلم

البلدى ، ولا يلى الهيثم يرثى النبي صلى الله عليه وسلم :

ألا قد أرى أن المنى لم يخلد

لأن المنايا للنفوس بمرصد

لقد جدعت آذاننا وأنوفنا

غداة فجئنا بالنبي محمد

(١) ذكره صاحب الاستيعاب فى الكنى ج ٤ ص ٢٥٥ - وقال - ابن -

التيهان - بدل النبهان - ولم يذكر له شعرا \*

١٢ - حرف النون :

ذكر فيه بنو نوفل <sup>(١)</sup> بن الحارث - وقال عنه :

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أخو  
أبو سفيان بن الحارث ، كان أسن من أسلم من بنى هاشم أخى رسول الله صلى  
الله عليه وسلم بينه وبين العباس بن عبد المطلب ، وشهد مع رسول الله فتح مكة  
وحنين والطائف وكان ممن ثبت معه يوم حنين \* .

وأورد له شعرا منه :

حرام عليّ حرب أحمد إنسى  
أرى أحمد بن قريب أو أصره  
وإن يك فهزّ ألبتّ وتجمت  
عليه فإن الله لا شك ناصره

وقال نوفل لما أسلم :

إيكم إيكم إننى لست منكم  
تبرأت من دين الشيوخ الأكابر  
لعمرك ما دىنى بشىء أبيعه  
وما أنا منذ أسلمت يوما بكافر  
شهدت على أن النبى محمدا  
أتى بالهدى من ربه والبصائر

(١) ذكره صاحب الاستيعاب ج ٣ ص ٣٧ ولم يذكر له هذه الاشعاره

## ذكر النساء الصحائيات

### ١ - حرف الهمزة :

أروى <sup>(١)</sup> بنت عبد المطلب - قال عنها :

” أروى بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عمّة النبي صلى الله عليه وسلم ، أنشد لها محمد بن سعد ترثي النبي صلى الله عليه وسلم :

ألا يا رسول الله كنت رجائنا  
وكنت بنا برّاً ولم تك جانيما  
كأن على قلبي لذكر محمد  
وما خفت من بعد النبي المكاويا  
أفأظلم صلى الله رب محمد  
على جدّث أمّس بيثرب ثاويما

### ٢ - حرف الباء :

ذكر فيه - بركة أم أيمن <sup>(٢)</sup> - وقال عنها :

” بركة أم أيمن قال ابن سعد وقالت أم أيمن يعنى بركة الحبشية ترثي رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أبياتا منها :

وأبكتنا خير من بزّشاه

في الدنيا ومن حصه بوحى السماء

---

(١) ذكرها صاحب الاصابة ج ٤ ص ٢٢٧ وذكر لها بعض هذه الابيات .  
(٢) ذكرها صاحب الاستيعاب ج ٤ ص ٢٥٠ ولم يذكر لها شعرا .

بدموع غزيرة منك حتى  
يتضى الله فيه خير التضا  
فلقد كان ما علمت وصولا  
لقد جاء رحمة بالضعفاء

٣ - حرف الصاد :

ذكر فيه - صفة (١) بنت عبد المطلب - وقال عنها :  
" صفة بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها  
هالة بنت وهب بنت عبد مناف بن زهرة بن كلاب أخت حمزة ، عاشت زمنا  
طويلا وتوفيت في خلافة عمر سنة عشرين ولها ثلاثة وسبعون سنة ودفت بالبقيع ،  
واسلامها وصحتها لا خلاف فيها بين أهل النقل ، ورثت النبي صلى الله عليه  
وسلم بمراثي كثيرة رويها عن ابن سعد جملة منها من ذلك قولها :  
عين جودي بدموع وسهود  
واندبني خير هالك مقسود  
واندبني المصطفى بحزن شديد  
خالط القلب فهو كالمحمود  
كدت أفض الحياة لما أتاه  
قدر خط في كتاب مجيد  
فلقد كان بالعباد رؤوسا  
ولهم رحمة وخير رغبت

(١) ذكرها صاحب الاصابة ج ٤ ص ٣٤٨ - وقال عنها : وذكر لها ابن اسحاق من رواية ابراهيم بن سعد وغيره في السيرة أبياتا مرثية في النبي صلى الله عليه وسلم منها :  
لقد رسول الله إذ حان يومه  
فياعين جودي بالدموع السواجم

رضي الله عنه حيا وميتا

وجزاء الجنان يوم الخلود

٤ - حرف الهاء :

ذكر فيه - هند (١) بنت أئامه - وقال عنها :

" هند بنت أئامه بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف أخت مسطح  
ابن أئامه ه ذكرها محمد بن سعد فيمن رثى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنشد  
لها من أبيات :

أصاب ذوائبي وأذل ركني

بكاؤك فاطم البيت الفقيد

فأعطيت العطاء فلم يكدر

وأخدمت الولاثة والمبيد

وكنيت ملاذنا في كل كرب

إذا هبت شامية بسرودا

وإنك خير من ركب المطايا

وأكرمهم إذا نسبوا جدودا

رسول الله فارقنا وكتبتنا

نرجى أن يكون لنا خلودا

أفاطم فاصبري فلقد أصابت

رزقيتك التهام والنجودا

---

(١) جاء عنها في كتاب الإصابة ج ٤ ص ٤٢٢ :  
بنت أبان بن عباد بن المطلب أخت مسطح ، ولم يذكر  
شعرها .

## ٢ - كتاب المقامات العلية في الكرامات الجليلة

وصف للكتاب  
وأخذ مقتطفات منه  
~~~~~

المقامات العلية ، لابن سيد الناس كتاب صغير يقع في ست وعشرين
صفحة من الورق المتوسط ، وهو مخطوط ومصور بمشهد المخطوطات في شريط
واحد متصل مع كتاب منح المدح *

وموضوعه كما قال صاحبه :

(في ذكر جماعة من الصحابة رضي الله عنهم رويت لهم كرامات ظاهرة
وأحوال باهرة) *

وقد بدأه بقصيدة روحية رقيقة استهلها ببيت شوقه وهيامه وتصوير
ذلك بمخاطبة السارين المدلجين القاصدين زيارة " طيبة " وساكنها عليه
الصلاة والسلام *

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر جماعة من الصحابة وكراماتهم ولتصح لنا
صورة الكتاب الادبية ثقتطف هذه الابيات من القصيدة :

سِر في الظلام بجذوة من أضلعي

وإذا عدت الورد حسبك أدعني

وصل السرى بالسيرولا متوانيا

واجف الكرى من بعد لين المضجع

وإذا حلت بطيبة فلك الهنا

بما حلت من الجناب المسرع

وإي يهيم به الفؤاد مقدس

كم لي لبعدي عنه أنه موجه

فانشرب به نسر المير تحيتي
وابثث كما بثت المقام فجمعى
واقتر السلام على النبي فطالما
حملته نسمات بان الأجرع
واحبس فؤادك إن تكن مثلى فما
ألقى فوادى عند ذكراه معى
وعساک تبدي ماترى من لهفتى
وعساک تجرى ماجرى من مدمعى

وتستمر القصيدة على هذا النمط الروحي العذب الذى يفيض بالحب العميق والشوق المتزايد إلى مثنوى الرسول الطاهر وحضرتة العظيمة وتنتقل القصيدة من المناجاة وبث الشوق الى ذكر شئ من معجزات الرسول ومعدها تخلع الى الصحابة وكراماتهم ، ويبدأهم بابى بكر الصديق رضى الله عنه ، فيذكر أن معكسره قد جاءت الإمدادات من السماء ، مشورا الى حروب الردة والانتصارات الباهرة التى اجرزتها جيوش الصديق رضى الله عنه :

ولعسكر الصديق أمداد السماء

وبعد الصديق رضى الله عنه يذكر عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين وشيئا من كراماتهم وتصحياتهم فى سبيل العقيدة ، ويعدد بعد ذلك عددا من الصحابة وكراماتهم ،

والقصيدة فى معظمها اذا استثنينا الابيات الاولى التى يبث فيها شوقه الى جناب الرسول الاعظم ومثواه الطاهر وما يبنى به النفس من الوصول الى تلك البقاع - فإننا نجدها لا تعدو أن تكون كأي مظلومة من مناومات المتون التى تخلو من الخيال الشعرى وتعتمد على الاسلوب النظامى الجاف ، ويمكن

تسميتها منظومة في كرامات الصحابة رضي الله عنهم *

وقد أعقب بعض الكرامات التي ذكرها في القصيدة بأسانيد لاثباتها
نأخذ منها على سبيل المثال ما أورده في ذكر شهود الملائكة لحروب الردة
في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال :

" أما شهود الملائكة الحروب التي كانت في خلافة أبي بكر الصديق
رضي الله عنه فذكرها الثعلبي وغيره من المفسرين ، وذكر وثيمة بن الثعلبي
ابن موسى في كتاب الردة في قتال خالد رضي الله عنه مسلمة : أن غلامين من
أهل اليمامة من بني يشكر نظر احدهما في اليوم الاول من أيام القتال فقال لاخيه
هل ترى ما أرى قال نعم قال فما ترى قال أرى ملائكة تنزل من السماء بأيديها
سيوف من نار تصرب وجوه القوم وأدبارهم قال فقد رأيت ، وذكر الخبر وذكروا فيه
قولهما لخالد لقينا ملائكة السماء بأيديها سيوف من نار فحفظنا يوما كيوم بدر *** "

ومثل هذه الاسانيد والحكايات كثيرة ومتعددة في كتاب المقامات
العلية لابن سيد الناس جاء بها لاثبات صحة ما يقوله وينقله منسوبا للصحابة
من كرامات *

وقد ختم قصيدته التي جعلها فاتحة لكتابه الصغير بالتوسل بالرسول
صلى الله عليه وسلم والصلاة عليه وعلى آله وأصحابه الساجدين الراكعين :
يارب صل على النسبي وآله

وصحابه من ساجدين وركع

٣ - كتاب بشرى اللبيب بذكرى الحبيب

وصف للكتاب
وأخذ مقتطفات منه

هذا الكتاب لابن سيد الناس مخطوط ومصور بمعهد المخطوطات ،
يقع في أربع وتسعين صفحة من الحجم المتوسط ، وهو ديوان شعر في مدح
الرسول وذكر شئ من معجزاته وخلقه العظيم .

وينظر في قصائد الديوان التي قد تطول أو تقصر نجدها جميعا
بعد مدح الرسول والمقدمة الغزلية او الوعظية التي تسبقه تتناول
الصحابة الكرام ، وتثنى عليهم بما هم أهل له من شجاعة وتضحية وفداء وكرم ،
وثبات خلف الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويحتوي هذا الديوان على سبع وعشرين قصيدة في المدح ، وهو
مبوب ومرتب على حروف المعجم كمادة كثيرة من أهل العلم والادب ، فأول
قصيدة فيه تحت عنوان :

قافية الهمزة

نأخذ منها هذه الابيات :

يا خليلي ليلة الجوزائس

ما احتيالي في المقللة الحورائس

كل دائي بها لسدي دوائس

ودوائس يغيرها عين دائس

رشتني فما عدت حبة القلب

ب وقالت صبوا على بلوائس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَهُوَ سَمِيٌّ

قافله

اطلب ليلة الجوزاء ما اجبت الى المقله الجوزاء

كل ذابني بهالذي دواي ودواي بغيرها عين دواي

شفتي فاعدت حبه القلب وقالت صبرا على بلواي

ان كل الجمال تحت لواي فلت كل الغرام تحت لواي

فاحات مصارع الحت ياسي ونعيم الحت فيه رجاي

رسواه لا تبيل مني فان شئت والا فالحق يا خيري سواي

فلت حسبي رضاك قالت فاهلا لك ان كنت راضيا بفضاي

ولك الفه زبا الحقة هنيئا ناعم الاله مستريح النعالي

ومني من في من شهيد في حيوه تنفي لدار البقا

فلت من لا الموت فلك واني ان الله من اسعد السعد

عاهدتني ولم تخل عن عهدي ودني ولا اشفت عن ولاي

ويستمر الشاعر في غزله الى أن يتخلص منه تخلصا الى السديح

قائلا :

خل عن خلة الحسان فما دا

م وداد مين خلة حننا

وأمدح الهاشمي أحمد ذا النج

سدة والباس والندی والحياء

وتسير القصيدة على هذا الوزن والقافية الى نهايتها مترسة طريق

همزية حسان بن ثابت رضي الله عنه :

عفت ذات الاصابح فالجوا

الى عذراء منزلها خلا

وأخذه من روح همزية ابن الفارض :

ارج النسيم سري من الجوزاء

سحرا فأحيا ميت الأحياء

ومتتمة عبير همزية البوصيري :

كيف ترقى رقيقك الأنبياء

ياسماء ما طاولتها سماء

لم يساووك في علاك وقد حا

ل سنأمك دونهمم وسماء

إنما مثلوا صفاتك لنا

من كما مثل النجوم السماء

وسار البابودي وشوقي في هذا الدرب أيضا فجاءت لهم قصائد عسما

على هذه القافية في مدح الرسول وَمَنْ لَا يترنم من عشاق المدائح

النبوية بقصيدة شوقي :

ولد الهدى فالكائنات ضياء

وفم الزمان تبسم وشماء ؟

قافية الناء

تحت هذه القافية أورد صاحب الديوان قصيدة مدح سهلة في معانيها خفيفة في أسلوبها وعباراتها ابتدأها بالنزل الرقيق كمادة شعراء المدح فسي تلك الفقرة قال :

رام من ريم الفـلاة

بعض تلك اللفـات

فهو للوحش أنيب

س ألف للـفوات

يا سليمان يتقـنى

بأهيل السـلمات

وسمير النـجم شو

قا لليبـالى السـمرات

ثم تخلص من النزل الى المدح تخلصا حسنا بهـذه
الآبيات :

أيها المهائم لا يفـ

تؤ يهوى الفتيات

عنه عن سلمى وسيل

ما ترتجيه النـجاة

وامدح العاصي ان * احببت محو السيئات

وسنتعرض لهذه القصيدة بشيء من الأفضة عندما نأتي لتحليل
شعره ، وهي تذكرنا بكثير من التائيات المشهورة في المدائح النبوية
كتائية دعبل الخزاعي :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزله وحي مقفر العريسات
وغيرها .

قافية الجيم

في هذا القافية أتى صاحب الديوان بقصيدة مدح نبوي لم يستعملها
بالغزل وذكر الاحبة الطاعنين والنوح على أطلالهم ، وانما استعملها بشيء
استجدده عشاق وشعراء المدائح النبوية في العصور الأخيرة ، وهو تنزيه الاله
سبحانه وتعالى وتمجيد ، واللجوء اليه والاعتماد عليه قال :

من المرتجى إن كان بابك مرتجا
وأى رجاء في سواك لمن رجى
الى أن قال :

فلا يسرج غير الله في كل حالة
فما فاز إلا من به علق الرجاء
تنزه عن عصر وأين ومشبهه
وكيف وتجسيم وما مثل الحجا
وليس بمولود ولا هو والسد
هو الله ملجا من إلى تصده لجا

ثم اتخذ معبرا الى مدح الرسول بهذا البيت فأحسن

التخلص من تنزيه الاله الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم *

مننت بإرسال النبي محمد

هدى منك يهدى من لتوحيدك النجا

واختتم القصيدة بهذين البيتين في الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم

وهما يشتملان على استمارات رائعة وصور تمثيلية بديعة :

عليه صلاة الله ثم سلامه

مدى الدهر ما أهدى الرياض بنفسجا

وما زار مخضر الربا الغيم باكيا

فأضحك ثغر الأتحوان المظججا

وعلى هذه الطريقة وهي الاستهلال في المدائح النبوية بتنزيه الاله

وتعجيد، والثناء عليه ثم الخلوص من ذلك الى المدح ذهب كثير من شعراء

المدائح النبوية في المصور الأخيرة *

تطبيق :

هذا الوصف الموجز وهذه المقتطفات من هذه الكتب لابن سيدي

الناس قصدت بها اعطاء صورة غابرة لهذه الكتب ومادتها الادبية باعتبارها

أثرا من آثاره الادبية ، ولم أقصد الاستقصاء والتحليل ، وقد أرجأت ذلك

إلى باب في دراسة شعره ونثره *

٤ - كتاب : عيون الاثر في فنون المغازي
والشمائل والسير

من الآثار العلمية ، الادبية ، التاريخية ، التي تحوى قدرا كبيرا
من تراثنا العربى الاسلامى لابن سيد الناس ، كتابه المشهور :
((عيون الاثر))

وهو كتاب مطبوع فى جزئين يشتمل على سيره الرسول صلى الله عليه
وسلم من ولادته الى وفاته ، وما وقع فى خلال ذلك من جلائل الاعمال التى
غيرت وجوه تاريخ البشرية من همجية وفوضى الى مدنية ومثل انسانية .

ويحتوى الكتاب أيضا على سيرة عدد كبير من الصحابة ويورد اشعارهم
التي أوجبت المناسبة ذكرها ، وهو يتكون من جزئين :

١ - يقع الجزء الاول منه فى ثلاثمائة وست صفحات ، بما فى ذلك مقدمة
الناشر ، وترجمة المؤلف فومقدمة الكتاب مواضع اصطلاحات ورسوم
للمؤلف .

وفى مقدمة الكتاب ترى ابن سيد الناس يعمد الى السجع
والمحسنات البديعية من جناس ومقابلة وغيرها ، على طريقة النشر
فى عصره . فهو يقول :

الحمد لله محلى محاسن السنن المحمدية بدر أخبارها ، ومجلى
ميامن السيرة النبوية عن غرر آثارها ، وهذه الظاهرة نجدها
فى جميع مقدمات كتب ابن سيد الناس فى السيرة النبوية وغيرها .

وبعد المقدمة والحديث عن ابن اسحاق دخل فى موضوع الكتاب

وهو السيرة النبوية ، فبدأ بذكر نسبه صلى الله عليه وسلم ، وختم
هذا الجزء بالحديث عن سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وأكثر ما يسترعى الانتباه في هذا السفر من مؤلفات ابن سيد الناس
هو عنايته وتحقيقه في رواية الأخبار وأسانيدها ، وتوضيح الفرائب ،
ومشرح الغوامض وذكر الفوائد التي تتعلق بالشعر وضبط أسماء الأماكن
التي ترد في السيرة النبوية بالشكل لسلامة النطق وعدم التحريف .

ويقع الجزء الثاني من الكتاب في ثلاثمائة وخمسين صفحة من الحجم
المتوسط .

- ٢ -

وقد بدأه بغزوة أحد ، وذكر أخبار عنها وفوائد تتعلق بهـذـه
الأخبار ، ثم ذكر من شهد أحداً من الصحابة وشيئاً من أعمارهم ،
ومن مميزات هذا الكتاب كما ذكرنا توضيح غوامض أعمار تلك المدة
وأرجاعها إلى أصولها ، وأظهار معانيها ، مثال ذلك ما أورد في
تصيدة كعب بن زهير عند قوله :

فإن كنت لم تفعل فلست بأسف

ولا قائلٍ إما عثرت لماً لك

سفاك بها المأمون كأساً رويّة

فانهلك المأمون منها وعـلـك

قال :

« والمأمون النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قريش تسميه
أيضاً بالأمين . ولماً ، كلمة تقال للماثر دعاء له بالاقالة . »

ومن توضيحاته في هذه التصيدة قوله :

تهلت المرأة فواد الرجل ، رهقه بهجرها فقطعت قلبه .

ومحلول من الملل وهو الشرب الثاني ، والاول النهل
وغير هذا ومثله كثير في الكتاب من توضيح غرائب الجمل والمفردات
وارجاعها الى اصولها في تواميس اللغة المعروفة .
وكان ختام هذا الجزء ذِكْر الاسانيد للمؤلفين الذين أخرج من
كتبهم ، وذِكْر تواريخ النسخ والساعات .
ويتميز هذا الكتاب بالدقة في التهجيب ، والترتيب ، والعرض .

المدائح النبوية في عصر ابن سيد الناس

- ٦٧١ - ٥٧٣٤ هـ -

في القرن السابع الهجري وهو القرن الذي عاش فيه أبو الفتح بن سيد الناس ، شاعت المدائح النبوية شيوعاً لم يسبق له مثيل ، وتفلسف الشعراء في تلك المدائح ، وان اعتمدوا على زخرف اللفظ والجبري وراء المحسنات البديعية حتى سميت اكثر قصائدهم بالبديعيات لاشتمالها على كثير من ألوان البديع المختلفة .

فوجد ابن سيد الناس قد نظم مدائحه الرقيقة في ديوانه المسمى " بشرى اللبيب بذكرى الحبيب " في تلك العدة ، ولا شك أنه تأثر بجو عصره العام ، ومن عاصره واعترف من علمهم وأدبهم أمثال البوصيري الذي شرب من معينه وأخذ عنه ماله من قصائد مشهورة فس مدح الرسول صلى الله عليه وسلم تأثر بها الكثيرون كالبردة التي شاعت في الأوساط الأدبية وراقت كثيرا من الشعراء فحاكوها وطأروها .

ونلاحظ هنا أن ابن سيد الناس لم يجار معاصره فيحاكي أو يعارض قصيدة البردة تهما لاستاذه البوصيري مع أنه جراه في محاكاة لامية كعب بن زهير حيث نظم قصيدته " عدة المعاد في معارضة بانة سعاد " ومطلعها :-

قلبي بكم يا أهيل الحى ما هـول

وجله بأمان الوصول

مفتغيا أثر البوصيري في قصيدته " نذر المعاد في معارضة بانة

سعاد " ومطلعها :-

الى متى أنت باللذات مشغول

وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وعموماً فإن قصيدة البردة كانت ملهمة ورائدة لكل من ورد هذا المورد العذب بعد البوصيري أمثال ابن حجة الحموي صاحب البديع المشهورة :-

لسى فى امتداحكم يا عَرَبَ ذى سلم
براعة تستهمل الدمع فى العليم
بالله سِرِّبى فِسْرِبى طلقوا وطنى
وركِّبوا فى ضلوعى مطلق السقيم

وقد نالت بديعته ابن حجة الحموي شهره كبيرة فى عالم البديعيات مع ما بها من تكلف وصنعة وخلوها من روح المدائح النبوية ، وأكسثر نقاد هذا النوع من الأدب يميزون شهرتها الى ما تميزت به من الصناعة اللفظية والإكثار من المحسنات البديعية .

ومن البديعيات التى اشتهرت أيضا قصائد ابن نباته المصرى -

١- الهمزية ومطلعها :-

شجون نحوها العشاق فـاءوا

صبرى ما له فى الصبر راء ،

٢- الرائية ومطلعها :-

صحا القلب لولا نعمة تتخطر

ولمعة برق بالفضا تسممر ،

٣- العينية ومطلعها :-

يادار جيراننا بسفح الأجرع

ذكرتك أفواه الفيوث الهمّسع

٤- الميية ومطلعها :-

أوجز مديحك فالمقام عظيم

من دنوه المنشور والمنظوم^(١)

ومن مشاهير القرن السابع الذين أسهموا في مجال المدائح النبوية
ابن دقيق العيد ، وقد كان من اساتذة ابن سيد الناس الأجلاء ، قال
يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :-

شرف المصطفى رفيع عماده

ليحي يحيى بكثرة تَعَدَادُهُ

لاح للمهتدين منه سراج

بيد الله قدحيه وزناده

بعثه بعث كل خير وسليلا

د الهدى والتقى ميسلاده

من قصيدة طويلاه *

وقد كان أغلب أصحاب البديعيات من المتصوفة الذين مدحوا النبي
صلى الله عليه وسلم عن حب عميق وصادق ، وعلى رأسهم الامام البوصيري
الذي روى لنا قصة برده بأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام
عقب ذلك ووضح عليه برده جزاء وفاقا لهذا العمل العظيم فانتبه من
نومه ونهض سليما محاسن *

والمعروف أن التصوف قد شاع في ذلك العصر وشاعت معه قصائده
المديح النبوي ، ولهذا الشيوع اسباب يذكر لنا بعضها الدكتور صافسي
حسين فيقول :-

١ - * أولا - تلك الظروف السياسية التي اظلت مصر والشام طويلاه
القرن السابع الهجري فقد كان السلطان في أيدي الأيوبيين ،
وهم الكراد وورثه عنهم المماليك وكانوا من الترك ، وذلك يحسب

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي ، د / زكي مبارك ص ٢٤٩

بطبيعة الحال فى نفوس أهل مصر والشام اذ سوادهم الاعظم كان من
الجنس العربى •

٢ - " ثانياً - ما كان عليه الحال فى مصر والشام من محاولات
الصليبيين ثم التتار للقضاء على الاسلام •

٣ - " ثالثاً - كان الشعب فى مصر يكون طبقه تختلف فى تقاليدها
وأخلاقها عما كانت عليه طبقه المماليك فالمماليك يمتزون بما لديهم
من القوة والتلبه والسلطان ، أما سكان مصر والشام فليس لهم
ما يمتزون به سوى الدين الذى سوى بين الأحمر والأصفر والحاكم
والمحكوم وجعل الناس سواسية كاسنان المشط •

٤ - " رابعاً - ومن العوامل التى أدت الى ذبوع هذا الفن فى الشعر
فى القرن السابع أن الشعراء لم يجدوا من يشجعهم على قرض
الشعر من ذوى الجاه والسلطان ولذلك حرموا عطاء كثيراً وخيراً
عما كانوا يتطلعون اليه وياملون أن يصل الى أيديهم • " (١)

ويقول الدكتور ماهر حسن فهمى :-

" وفى القرن السابع الهجرى كانت الحروب الصليبية مشتعلة امتد
لهيبتها الى مصر ، وتتابع الهيلات ، يوقد العاطفة الدينية ويجعل الناس
يلجأون الى ربهم وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ينتفون النجاة " (٢)

لقد أدت تلك العوامل مجتمعة الى تحرك عواطف الشعراء وتحرقها
فى حب النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو فخر العرب والمجم ، وهى

(١) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص / ٣٥٦ / د / على
صافى حسين ، (٢) شوقى وشعره الاسلامى ص ١٨٠ - د / ماهر
حسن فهمى •

عواطف جياشه صيها الشعراء في قصائدهم قاصدين التنفيس عن أنفسهم
وأن يخففوا وطأة الألم وكثرة الاحزان التي يعيشون فيها صباح مساء ،
لقد اتجهوا الى النبي صلى الله عليه وسلم يمدحونه بتلك القصائد الرائعة
وتوسلون به الى الله لعله يكشف الضر وفتح الكرب حتى تستقر النفوس
وتهدأ القلوب .

(وعند)

هذه عجالة سريعة أقيت بها ضوءاً على المدائح النبوية في عصر
ابن سيد الناس ، قصدت بها أن تكون مدخلا لي على مدائحه النبوية .

* * *

:: (الباب الثاني) ::

شمسره وخائصسه

الفصل الأول

دراسة مقارنة في قصيدتين في المدح

بينهما وبين البوصيري

١ - قافية الهمزة

٢ - قافية السلام

تحت قافية الهمزة قال شعراء كثيرون في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البوصيري وابن سيد الناس ومحدثهم^(١)

من أولئك السابقين سيدنا حسان^(٢) بن ثابت رضي الله عنه شاعر

(١) البوصيري - ٦٠٨ - ٦٩٦ هـ - ١٣١٣ - ١٣٩٦ م - هو محمد ابن سعيد بن حماد بن عبدالله الصنهاجي البوصيري المصري ، شرف الدين أبو عبدالله ، شاعر حسن الديباجة مليح المعانسي ، نسبته الى بوصير " من أعمال بني سيف بصر " أمه منها ، وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيلة يعرفون ببني جنسون ومولده في بهشيم من أعمال البهنساوية بصر ، ومنشأة في دلاحيه ، ومن أشهر شعره " البرد " و " الهمزة " و " بان سعاد " - فوات الوفيات ج ٣ ص ٣٠٥ .

وذكر في تحقيق ديوان البوصيري ص ٧ الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م ابن سيد الناس فيمن أخذوا عنه الشعر والنوادر ، نص ما قيل " وأما الذين أخذوا عن البوصيري فمنهم أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٢٥ هـ بالقاهرة ، وأبو الفتح بن سيد الناس اليمسري المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، وعزالدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٥ هـ . وسيدو أنهم أخذوا عنه شعره ونوادره .

(٢) حسان بن ثابت ، رضي الله عنه - " ٥٤٠٠٠ هـ ٦٧٤٠٠٠ م " ابن المنذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد الصحابي شاعر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والأسلم ، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الأسلام ، وكان شديد الهجاء فحل في الشعر ، قال المبرد في الكامل :- أعرف قوم كانوا في =

الرسول صلى الله عليه وسلم الأول والمدافع عن الإسلام بما هو أشد ممن
وقح الحسام ، حيث قال قصيدته الهمزية الرائدة التي ألهمت كل ممن
جاء بعده ، وقد بدأها بذكر الديار على عادة السابقين من الشعراء ،
قال :-

غفت ذات الأصابع فالجـواء
الى عذراء منزلها خلاء
ديار من بنى الحساس قعر
تعفيها الروامس والسماء
وتدرج في قصيدته الى أن وصل الى مدح الرسول صلى الله
عليه وسلم :-

وجبريل رسول الله فينا ،
وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدا
يقول الحق ان نفع البلاء ،
ومن السابقين في هذا الميدان أيضا ابن الفارض رضى الله عنه ،
وقصيدته الروحية :-

أج النسيم سرى من الجوزاء
سحرا فأحيا ميت الأحياء

= الشعر قوم حسان فأنهم يعدون ستة في نسق كلهم شاعر ، توفى
حسان في المدينة *
* تهذيب التهذيب - ٣ : ٢٤٧ والأصابع / ١ : ٣٣٦ ، ونكت
الهيمنان ١٣٤ *

متردة على كل لسان في مجالس العاشقين .
هؤلاء هم السابقون ، وهناك غيرهم من الرجال ممن لا يسع المجال
لذكرهم .

والهصيري هو فارس هذا الميدان وخصوصا في تصيدته الهمزية هذه
التي نحن بصدد ها ، وهي تفوق تصيدة تلميذه ابن سيد الناس في عدد
الابيات وفي الأسلوب والمعاني ، وهذا ما يتضح لنا بالمقارنة والموازنة
والتحليل .

نص التصيدتين :-

قال ابن سيد الناس :-

يا خليلي ليلسة الجوزاء
ما احتيا لى فى المقلسة الحوراء
كل دائسى بها لدى دوائسى
ودوائسى بها عيين دائسى
رشقتنى فماعدت حبة القلب
ب وقالت صبرا علسى بلوائسى
ان كل الجمال تحت لوائسى
قلت كل الفيرام تحت لوائسى
فأجابت همارع الحب يأس
وتعسيم المحب فيه رجائسى

* * *

خل عن خلة الحسان فسادا
م ودائمت خلة حننا
وامدح الهاشمى أحمد ذا النجم
دة والباس والتدى والحياء

من قريش أولى سعد بن عدنا
ن بفضل الآباء والأبناء
من قصى أقصاهم شرفا من
أباد الملوك فى البطحاء
من بنى هاشم بن عبد مناف
ونو هاشم بحار الحياء
من قريش البطاح من عرف النا
س لهم فضلهم بخير امتراء
نسب جاوزت معاليه قدرا
أن يسامى بانجم الجوزاء
رحمة الله والبشير لأهل الأر
ض طرا امام أهل السماء
أول الناس فى المعاد وفودا
أشرف الخلق خاتم الأنبياء
خصه الله بالعلماء فارتقى ما شا
ء منها فى ليلة الإسراء

كم شفى اللبس منه داء غالا
صار منه ملموسه فى شفاء
وسرور اليمسين منه على السدا
لمن يشتكى أجل السدا
وعلى الصلح ينبت الشعر سهطا
سالمبا بعد ذا من الأسواء

صاحب الحوض والشفاعة يسو
م المروض عمت وأول الشفعا
رافع الكرب عن جميع البرايا
كامل الأصر كاشف الغما

فاعدف عنى يارب من سيئاتى
فبه ثم لى اليك التجائى
وأجزنى من موقاتى بحب آ
ل طه وحب أهل العبا
فهم عصمة الاله ونور منك
باق يجلو رجى الظلماء
فصلاتى عليهم من صلاتى
وهم فى الخطوب أرجو نجائى
وعلى الصطفى صلاتك والا
ل جميعا وجه الأتقيا

وقال البوصيرى :-

كيف ترقى رقبك الأنبياء
يا عماء ما طاولتها مماء
لم يساووك فى علاك وقد حا
ل سنا منك دونهم ونساء
انما مثلوا صفاتك للنبا
س كما مثل النجوم المساء

لم تنزل في ضمائر الكون تختنا
ر لك الأمهات والآباء
تباهى بك العصور وتسمو
بك علينا بعدها علينا
ودا للوجود منك كريم
من كريم آباؤكم كرماء
نسب تحسب الملا بحاله
قلدها نجومها الجوزاء
جذا عقد سؤدد وفخار
انت فيه اليتيمة العما

* * *

مولد كان منه في طالع الكف
ر وصال عليهم ووماء
فهنيئا لآمنة الفضل
ل الذي شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحد
مد أو أنها به نفسها
يسوم نالت بوضعه ابنة وهب
من فخار ما لم تله النساء
وانت قومها بأفضل مما
حملت قبل مريم المذراء

* * *

وتدلت زهور النجوم اليه
فأضأت بضوءها الأرجاء

ونسراة قصور قيصر بالمسرو
م يراها من داره الهطحيسا
مدت فسى ضاعه مجزات
ليس فيها عن العيون خفاء
اذ ابته ليتمه مضمات
قلن ما فى اليتيم غنا غنا
فأته من آل سمد فتاة
قد أبته لفرها الرضما
أرضته لبأته فسقتها
ونيهما ألأنهين الشاء
أصحت شولا عجافا وأست
ما بهما شائل ولا عجفا

* * *

وإذا سخر الآله أناسا
لسعيد فأنهم سمدا

* * *

أنت جده وقد فضله
وما بها من فضاله البرحاء

* * *

الفالنسك والعبادة والخل
وة طفلا وهكذا النجيا
وإذا حلت الهداية قلبا
نشطت فسى العبادة الأغصا

* * *

ورأته خديخه والتقى والنه
يتمد فيه سجية وحياء

فدعته الى الزواج وما أح
سن ما يبلغ السنى الأذكيا

رب ان الهدى هداك وآيا
تك نور تهدي بها من تشاء
أخرجوه منها وآواه غبار
وحمته حمامة ورقسا
وكفته بنسجها عنكبوت
ما كفته الحمامة الحصدا

واقفنى اشره سراقه فاستهم
وتبه فى الأرض صافت جرداء
ثم ناداه بعد ما سيمت الخد
ف وقد ينجد القرمق النداء
فطوى الأرض سائرا والسما
ت العلا فوقها له اسراء
فصف الليلة التى كان للمخ
تار فيها على البراق استواء
وترقى به الى قاب قوس
يمن وتلك السيادة القماء

كرمت نفسه فما يخطر السو
على قلبه ولا الفحشاء
هظمت نعمة الأله عليه
فاستقلت لذكوره العظماء

* * *

شق عن صدره وشق له الهد
ر ومن شرط كل شرط جزاء

* * *

درت الشاة حين مرت عليها
فلها ثروة بها ونماء
نوع الماء أثمر النخل في عا
م بها سبحت بها الحصاء

* * *

وأعادت على قتادة عينا
فهي حتى ماتته النجلاء

* * *

تلخيص ودراسة :-

- (1) استهل ابن سيد الناس قصيدته بنسب عذ ب رقيق فقال :-
يا خليلي ليلة الجوزاء * ما احتيا لي في العقلة الحوراء
واستمر في حوار وأخذ ورد مع محبوبته وأطال في ذلك السى أن
تخلص منه تخلصا حسنا الى غرضه المنشود وهو المدح فقال :-
خل عن خلة الحسان فسادا
م و داد من خلة حسناء
وأمدح الهاشمى أحمد ذا النجم
دة والبأس والندى والحياء
وانتقل بعد ذلك الى نسبه وذكر فضل آباءه وأجداده صلى الله
عليه وسلم ، فقال :-
من قريش أولى معد بن عدنا
ن بفضل الآباء والأبنساء
الى أن قال :-
نسب جاوزت معاليه قسدا
أن تسمى يانجم الجوزاء
ثم ذكر أنه أول الخلق فى الوفود الى أرض الحساب يوم القيامة
وأنه خاتم الأنبياء :-
أول الناس فى المعاد وفودا
أشرف الخلق خاتم الأنبياء
وانتقل الى الأسراء والمعراج الذى خصه الله به :-
خصه الله بالملأ فارتقى
ما شاء منها فى ليلة الأسراء

ولم ينزل راقيا سماء سماء
ففى العظميين من سنا وسنا
وتحدث عن معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وأن لسه يكفى لشفاء
المرض ، ومن يده يكفى لأنبات شعر الصلح وشفاء الأعين العليلة :-

كس شفى اللمس منه داء غصالا
صار منه لموسه ففى شفاء
ومرور اليمين منه على الدا
لمن يشتكى أجل الصدر
وعلى الصلح ينبت الشعر سهطا
سألما بمد ذا من الأسواء
وكذا المين العليلة صحت
فهو كحل للمقله الرمداء

وتحدث بمد ذلك عن حوضه المورود وشفاعته الكبرى يوم المرض :-

صاحب الحوض والشفاعة يـ
م المرض عمت وأول الشفماء
رافع الكرب عن جميع البرايا
كامل الأصر كاشف الغماء

وانتقل بمد ذلك الى الاستغاثه والدعاء والتوسل :-

فاعف عنى يارب من سيئنا
نى فيه قـم لي اليك التجائى
وأجرنى من موقاتنى بحسبى
آل طه وحب أهل العباء
فهم عممة الألسه ونور
منك بواق يجلو دجى الظلماء

فصلائي عليهم من صلاتي
وهم في الخطوب أرجون نجاء
وختتم القصيدة بطلب الرحمة من الله بالصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم وصحبه الأتقياء -
وعلى المصطفى صلاتك والا
ل جميعا وصحبه الأتقياء
ما دجى الليل فأنجلي عن صباح
واستقبل الصباح نحو المساء

(ب) أما البصيري فقد استهل قصيدته العصماء بالدخول في موضوع
المدح مباشرة بدون مقدمات في النزل أو النسب ، بل اقتحمها
بهذا الاستفهام المنبه للاذهان :-

كيف ترقى رقيبك الانبياء
يا أسماء ما طاولتها سماء ؟
وعد أبيات رائعه في المدح انتقل الى ذكر نسبه صلى الله عليه
وسلم -

ودا للوجود منك كريم
من كريم آباءه كريماء
نسب تحسب العلا بحلاله
قلدتها نجومها الجوزاء
حذا قد سؤدد وفخار
أتت فيه اليتيمة العصماء

وانتقل بعد ذلك الى مولده صلى الله عليه وسلم وأنه كان وسالا
وواء على الكفرة وقد حصل بمولده الشرف الذي عم كل الامهات

حتى حواء ، وقد نالت أمنه بنت وهب الفخر الذي لم تتله النساء بمولده ،
وجاءت لقومها بأفضل الانبياء وسيد المرسلين :-

مولد كان منه في طالع الكف
ر وقال عليهم ووا
فهنيئا به لأمنة الفض
ل الذي شرفت به حواء
من لحواء انها حملت أح
مد أو أنها به تقساء
يوم نالت بوضع ابنة وهب
من فخر ما لم تتله النساء
وأنت قومها بأفضل م
حملت قبل مريم العندرا

وتحدث بعد ذلك عن رضاه وكيف أن حليلة السعدية سعدت به
وأخصب عيشها بعد المحل ، وسمنت الشارف والشياه لديها بعد العجاف
ودرت وسقت الأبناء وأهل البيت حتى أروتهم ن
وسدت في رضاه معجزات

ليس فيها عن العيون خفاء
فأنت من آل سعد فتاة
قد أبتها لفرها الرضماء
أرضته لبانها فسقتها
ونيتها ألبانها الشاء
أصحت شولا عجافا وأست
ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل
أز غدا للنبي منها غدا

وأعقب ذلك بأبيات فى الحكمة جرت مجرى الأمثال :-

وإذا سخر الأله أناسا

لسميد فأنهم سميداء

وإذا حلت الهداية قلبا

نشطت للمباداة الأعضاء

رب ان الهدى هداك وآيا

تلك نور تهدى بها من تشاء

وانتقل الي ذكر المعجزات ، فذكر قصة النار والحمامة والعنكبوت :-

أخرجوه منها وآواه غار

وحتمه حمامة ورقباء

وكفته بنسجها عنكبوت

ما كفته الحمامة الحصيداء

وذكر قصة سراقه بعد ذلك ، وكيف ان قوائم فرسه صاغت فى

الأرض الصلبة حتى طلب الأمان من الرسول صلى الله عليه وسلم ففتحها ايساه

فأسلم وطاد من حيث أتى :-

واقطنفى اثره سراقه فاستهوت

ه فى الأرض صافن جرداء

ثم ناداه بعد ما سيمت الخيد

ف وقد ينجد الفريسق النداء

وتحدث عن الأسراء والمعراج وما حدث فيهما من معجزات ، فقصد

طوى الله له المسافات والأبعاد ، وامتطى الطائر اليمون المسمى السبراق ،

وزار بيت المقدس وعرج الى السماوات العلا واقترب من ربه قاب قوسين أو
أدنى فكلمه الله وأعلى مقامه وفرض عليه وعلى أمته الصلاة ، كل هذا فسى
ليلة واحدة نـ

قطوى الأرض سائرا والسما
ات الملا فوقها له أسراء
صف الليلة التي كان للمختا
ر فيها على البراق استروا
وترقى به الى قاب قوسين
ن وتلك السيادة القمصاء

الى أن قال :

فاذا ما تلى كتابا من الل
ه تلته كتيبة خضراء

ومعد ذلك تحدث عن مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، من
طهارة القلب ، وحلم النفس ، وسعة العلم :-

كُرِمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ السُّو
على قلبه ولا الفحشاء
جهلت قومه عليه فأغشى
وأخو الحلم دأبه الأغواء
وسع العالمين علما وحلما
فهو بحر لم تميمه الأعباء

ثم عاد الى المعجزات ، فذكر در الضرع اليابس ، ونبع الماء ،
وإثمار النخل ، وتسبيح الحصى ، وعودة عين " قتاده " سليمة بعد أن فقئت
وفقدت الأبصار :-

درت الشاة حين مرت عليها
قلها ثروة بها ونماء
نبع الماء أثمر النخل في عا
م بها سبحت بها الحياء

الى أن قال :-

وعيون مرت بهيا وهي رمدا
فأرتها ما لم تير الزرقاء
وأعادت على قتادة عينا
فهي حتى ماتته النجلاء

* * *

واستمرت القصيدة على هذا النسق العذب الذي يشف عن
حب صادق عميق الى أن ختمها بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلم
والصلاة عليه :-

فسلام عليك تترى من الله
وتبقى به لك البأوأ
وسلام عليك منك فما غيب
رك منه لك السلام كفاء
وسلام من كل ما خلق الله
لتحيا بذكرك الأملاء
وصلاة كالمسك تحمله مني
شمال اليك أو تكبلاء

تعليق وموازنة :

- (١) ابتداءً ابن سيد الناس قصيدته بالنسب على عادة القدامى ، أما البوصيري فقد دخل في موضوع المدح مباشرة ، وهذا يدل على تمكن البوصيري وموضوعيته .
- (٢) اتفق الشاعران في ذكر بعض المعجزات كالأسراء والمعراج ، وشفاء المرضى بالمس واللمس ، ورد عين قتادة ، وذكر نسبه الشريف ، وتوسع البوصيري في ذلك فذكر قصة الغار والحمامة والعنكبوت ومولده صلى الله عليه وسلم ورضاعه وفصاله وشق صدره ، وفي كل هـذ المعاني يمكن أن نعتبر أن اللاحق وهو ابن سيد الناس استفاد من السابق وهو البوصيري .
- (٣) وصف ابن سيد الناس ممدوحه صلى الله عليه وسلم ، بالنجسده والباس والندى والحيا ، ووصف البوصيري ممدوحه صلى الله عليه وسلم بطهارة القلب وحلم النفس وسعة العلم .
- (٤) ولنا أن نقول بعد ذلك لقد امتاز البوصيري بسعة معانيه ورقتهما وطول نفسه وصدق عاطفته وخياله الشعري الذي يترك المستمع يحيش في تلك الرحاب الطاهرة .
- ولا شك أن الخيال الرائع المثير وليد العاطفة الصادقة المتقدة .
- (٥) يؤخذ على الشاعرين أن المعاني التي تناولها في المدح قديمة مطروقة طرقها أصحاب السير ورواة التاريخ الإسلامي ، إلا أن جمال التصوير ، ورقه التعبير ، وصدق العاطفة ، والخيال الرائع المثير كل هذه الاشياء جمعت الأسلوب يضغى على المعانى روعة وبها وجدة .

(٦) اغنى الشاعران في ايراد بعض الحكم دعما لما أورداه من معان ،
الا أن حكم البوصيري كانت أقوى في معانيها واجمل في أسلوبها
وأسير على الألسن .

كقوله نـ

وإذا سخر الألسن أناسا

لسميد فأنهم سميداء

وقوله :-

وإذا حلت الهداية قلبا

نشطت للمباداة الأغضاء

(٧) وإذا جاز في شريعة الأدب لأمثالي من المبتدئين أن يصدروا
أحكاما في الموازنة الأدبية على قدر مداركهم وعقولهم فأني
أقول :-

لقد كان للبوصيري فضل السبق الى صوغ المعاني ووضعها
في قالب أدبي لم يسبق اليه ، كما كانت له الأستاذية في جمال
الأسلوب وحسن السبك ، وكانت لابن سيد الناس الرقة والعمومة
التي تميز بها عن استاذه البوصيري ومن جاءوا بعده من المادحين .

٢ - قافية السلام

لازلنا مع ابن سيد الناس والبصيري في فصل الدراسة المقارنه .
والآن نحن مع قصيدة ابن سيد الناس اللاميه " عدة المعساد
في عرض بانث سعاد "

مقارنة مع قصيدة البصيري " ذخير المعاد في معارضة بانث سعاد "
من هذه المطالع نفهم بدهاهة أن فارس هذا الميدان ولهم اسم
فنه هو صاحب " بانث سعاد " وهو الصحابي الجليل والشاعر الفحل
سيدنا كعب بن زهير رضى الله عنه (١)

والواقع أن هذه القصيدة بلغت من الأهتمام والشهرة ما لم ييلفه
غيرها ، وهى أول ما سعى باسم " البردة "

وقالوا فى سبب تسميتها بالبردة أن الرسول صلى الله عليه وسلم
وضع برده على كعب بن زهير حين أنشدها .

وأهتم بيها الشارحون والناشرون والمترجمون فكانت لها شـسـروح
كثيرة وطبعات عديدة ، وقد ترجمت لللاتينية والفرنسية والألمانية والانجليزيه
والتركيه وغيرها (٢)

(١) كعب بن زهير بن أبى سلمى ، شاعر النبى صلى الله عليه وسلم
المشهور ، تخرج فى مدرسة الشعر كأحسن ما يمكن أن يتخرج
شاعر فى الجاهلية ، فكان ابوه شاعرا ، ووالد أبى سلمى
شاعرا ، وكان بشامة بين الفديير خال زهير شاعرا وأوس بن حجر
زوج أم زهير شاعرا ، وهكذا كان كعب ابن الشعر كبرا عن
كابر .

(٢) فواد البستاني الروائع ص ٣٢ - الخ

وهذا أصبحت " بانة سعاد " هي القصيدة الأولى في هذا الباب التي جادت بالأسلوب والمعاني مما فجارها الكثيرون .

ومن الذين ساروا على نهجها الأمام البوصيري وابن سيد الناس وأبو حيان الأندلس في قصيدته " المورد العذب في معارضته قصيدة كعب " والقاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، وابن نباتة المصري ، وغيرهم .

ومن الذين خمسوها شعبان بن محمد ، ومطلع تخميسه :-

قل للعواذل مهما شتموا قولوا

فليس لى بعد من أهواه معقول

ناديت يوم النوى والدمع مسبول

بانة سعاد . . .

وأحمد بن محمد الجرجاني ، وغيرهم .

وشرحها كثيرون منهم مسعود بن حسن بكري ، القنائي ، وأسم شرحه " الاسعاد لحل نظم بانة سعاد " ومحمد صالح السباعي ، وأسم شرحه " بلوغ المراد على بانة سعاد " وأحمد بن محمد اليمسني ، وغيرهم حتى أصبح شرح بانة سعاد من المراجع النحوية التي يرجع إليها فيقولون كما في شرح بانة سعاد . (١)

ما تقدم نعلم أن بانة سعاد لكعب بن زهير قد أثرت اللبنة والأدب وأصبحت مدرسة رائده ومعلمه في المدائح النبوية .

وقد ترسم الشعراء خطوات هذه القصيدة خطوة خطوة حتى فس

(١) المدائح النبوية في الادب العربي - د . زكي مبارك ص ٢٥ - ٢٨

الاسلوب والتنقل من غرض الى غرض آخر ، فقد بدأ كعب بالانزول ووصف
الديار ، وكذا فعل اكثر من قال بعده ، لهذا نحس أن كعب بن زهير
بقصيدته هذه كان - هو الصائح المحكي - وكل من جاءوا بعده كانوا
مرددين لصداه ، وسائرهم على حذاه ، ومن بين اولئك البوصيري وابن
سيد الناس اللذين نحن بصدد الدراسة والمقارنة بين قصيدتيهما *

نص القصيدتين :-

قال ابن سيد الناس :-

قلبي بكم يا أهيل الحي مأهول
وجيله بأمانى الوصول
ولست ألوى على عذر ولا عزل
ففى المحبة معذور ومعزول

ياراحلين وما أبقوا سوى رمق
منى له عن دواعى الأوس ترحيل
سرتهم فما أعشب الوادى ولا بسمت
أزهاره وغدا مفضاه تطليل

إذا بدت لك أعلام النبی بهما
وشملها برداء المجد مشمول
فاعذر فؤادك أن طار السرور به
شوقا اليه فعمه الصبر محمول

محمد خير خلق الله كلهم
من أخبرت عنه تسوراة وانجيل
من جاءت الكتب والرسول الكرام به
وأعربت عنه آيات وتزييل
من طبق الأرض بالأنوار مولده
شرقا وغربا وجنح الليل مسدول
والنهر غاض ونار الفرس قد خمدت
وانشق ايوان كسرى فهو مخبول
والشهب ترمى شياطين الضلالة اذ
تسمو فتشمم ان لم يبق تليل

وفي حليلة اذ وافيت ومركبها يبطي
وشارفها بالجهد مهزول
فدرت الشاة واستوفى رضاعته
أخوك والقوم من جهد مهزول
والعير خف أمام الركب ذا مسرح
يمدو وحمل ما لا تحمل الفيل
كفلتم آل سعد خير من حملت
به اثني فيكم للسعد تكليل
وجاءك الملك المأمون طائره
وحول ساحتك المود المطافيل
فشق صدرك عما كان مني حدث
لم ينج من مثله الرسل الأماثيل

وفى الفطامة صددت حَرَّها جِسرة
عن حر وجهك آيات وتحوسل
والمعجز الأكبر القرآن جاء به
فراقهم منه ايراد وترتيل
وللبلاغه فرسان لهم خطيب
وسحر شعر صحيح النظم منحول
فرام ذو القول منهم أن يعارضه
ولن يعارض ذا الحق الأباطيل
وفى انشاق أخيه البدر حين بدا
فرقين واختلقت فيسه التعاليل

وخسه ليله الأسراء خالقسنة
بمعجزات لها ذو اللب مذهبول
يحكى عن القدس نجلا بالحجاز له
وما المعايين بالاهسام مدخول
وللبراق وقد رام الجصاح بسسه
قال ائند بحبيب الله جبريل
فما علاك كهذا المصطفى يشمر
فقاله منه توييخ وتخجيسل
ورؤية الحق حق ما خصصت بسسه
منها وليس لقول الله تهديسل

وفى سراقه اذ ساخ الجواد بسه
فصده عن نشاط السعي تكسيل

يوم بدر ينادى في عرشه
سيهزمون فمشرق الشرك مثلول
واستجيز الله وهند النصر فانقلب ال
أعداء صرعى فمكبول ومقتول

والحديبية انهلت أنامله
وطالسب الورد عنه الورد مفصول
فركوة الماء قامت بالضوء لهم
فكم لهم غرر منها وتجميل

واستقبل الفتح في جيش يضيئ به
رحب الفناء وسيف الرعب مقبول
بكل أروع ضاح أسرته
له الى الحرب ترحيب وتأهيل

يا أيها السيد الهادي الذي شرفت
بما حوت منه أنصار مقبول
يا رحمة عمت كل ذي بشر
من الأنام فتجميل وتأهيل

الى أن قال :-

قد دنس الثوب مني جهل مخترف
فهل أعوذ وثوبى منه مقبول

وقال البرصيري - :

التي متى أنت باللذات مشغول
وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

والمصطفى خير خلق الله كلهم
له على الرسل ترجيح وتفضيل
محمد حجة الله التي ظهرت
بسنة ماها في الخلق تحويل
نجل الأكارم والقوم الذين لهم
على جميع الأنام الطول والطول

فالنبوة إتماماً وبتبدأ
به وللجبر تعجيل وتأجيل

وعنه أنبأ موسى والسيح وقد
اصنعت حواريه الغر البهاليل
بانه خاتم الرسل البهاح له
من الفنائم تقسيم وتفضيل

علوم غيب فلا الأضاد حاكمة
ولا التقويم فيها والتحويل
اذ الهواتف والأنوار شاهدها
لذي السامع والأبصار مقبول

ونار فارس أضحت وهي خامدة
ونهر جامد والصبح مثلسول
ومذ هدانا الى الأسلام معشيه
وهي الشياطين والأصنام تجديد

ان رمت اكبر آيات وأكلمها
كفاك من محكم القرآن تنزيل
هو الشفيح اذا كان المماد غسدا
وأشد للحشر تخوف وتهويل

أعلى المراتب عند الله رتبته
فاعلم فما موضح المبوب مجهول
من قاب قوسين أو أدنى له منزل
وحق منه له شوى وتحليل
سرى الى المسجد الأقصى وعاد بسية
ليلا يراق يبارى السبرق هذلسول

ولا يرى في الثرى أثر لأخصه
اذا مشى وله في الصخر توحيل
دنا اليه حنين الجذع من شخيف
اذ ناله منه بعد القرب تنزيل

كم عاود البرء من أعلاله جسدا
بلمسه واستيان العقل مخبول
ورد الشين في رى وفي شبع
اذ ضاق باثنين مشروب وماكول
ورد ماء ونورا بعد ما ذهب
ريق له بكلا العينين متفول
ومنيح الماء عذبا من أصابعه
وذاك صنع به فينا جرى النيل

* * *

واغيرتا حين أضحى الفار وهو به
كشيل قلبي محمور وأهول
كأنما المصطفى فيه صاحبه الص
ديق ليثان قد أواهما غيل
وجلل الفار نسج المنكبوت على
وهن فياجبذا نسج وتجليل

* * *

والذئب والعيير والمولود صدقه
والظبي أفصح نطقا وهو مخبول
قل للنصارى الألى ساءت مقاتلهم
فما لها غير محض الجهل تعليل
من اليهود استفدتم ذا الحجود كما
من الشراب استفاد الدفن قابيل
فأن عندكم توراتهم صدقت
ولم تصدق لكم منهم أناجيل

جاهدت في الله ابطال الضلال التي
أن ظن للشرك بالتوحيد تهطيل
شكا حسانك ما تشكو جمعهم
ففيه منها وفيها منه تغليل

وم يدور ان الأسلام قد طلعت
به بدورا لها بالنصر تكحيل

والخيل ترقص زهوا بالكمات وسا
غير السيوف بأيديهم مناديسل

دامت عليك صلاة الله يكلمها
من المهيمن ابلاغ وتوصيل
ما لاح ضوء صباح فاستسربسه
من الكواكب قنديل فقنديل

تلخيص ودراسة : -

(١) ابتدا ابن سيد الناس قصيدته بخزل رقيق فى عبارة هادئة :-

قلبي بكم يا أهيل الحى مأهول
وجبله بأمانى الوصل موصول

واستعذب الموت فى سبيل غرامه وهيامه :-

لو لم أر الموت غدا فى الفرام بكم
ما شاقنى لحسام البرق تقييل

وقد طال ليل انتظاره حتى خيل اليه انه لا ينقضى :-

وطال ليلى حتى لا انقضاء له
ولا يحيط به عرض ولا طول

وأطلق آهة حزنيه :-

ياراحلين وما ابقوا سوى رمق
منى له عن دواعى الانس ترجيل

واستمر فى غزله ونجواه الى أن أسفر صبحه وناداه يخفف من
لوعته وأساه :-

ولا بدا الصبح الا قال قد سمرت
سعاد يا كعبها كم أنت متبول

وفى هذا تلميح الى قول كعب بن زهير :-

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

وأراد أن يَمْبُرَ من غزله الرقيق العذب الى مدح الرسول صلى
الله عليه وسلم فأحسن التلخيص بهذه الأبيات :-

رُدُّ ماء وجهك ان عزت مسواردها
فكل صعب بها يحوه تسهيل
وكلمنا صنت من دمعى أضن بسنه
على المقيت تراه وهو مسذول
اذا بدت لك أعلام النبي بهسا
وشملها برواء المجد مشمول

ودخل فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبدأ بتمجيد وتمظيم
البقعة التى حل بها :-

واحلل بطيبة ازكى الأرض منزلة
مفنى به برسول الله تفضيل

الى أن قال :-

محمد خير خلق الله كلهم
من أخبرت عنه توراة وانجيل

والشطر الأول من البيت مطابق للشطر الثانى من قول البوصيرى :-
فبلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم

* * *

ثم انتقل الى مولده صلى الله عليه وسلم ، وما صحبه من ارهاضات
تنبه الأذهان الى الحدث العظيم والهدى البين الذى ولد بمولده
صلى الله عليه وسلم نـ

من طبق الأرض بالأنوار مولده
شرقا وغربا وجنح الليل مدول

والنهر غاض وشار الفرس قد خمست

وانشق ايوان كسرى فهو مخبول

وانتقل الى ارضاء صلى الله عليه وسلم ، فذكر من بركات ذلك

قصه حمار السيدة حليلة الهزبل الذي عاد يسبق غيره ، والشياخ السني

دردت واروت القوم .

واكتفائه صلى الله عليه وسلم بثدي واحد وترك الآخر لأخيه ابن

حليلة :

وفى حليلة اذ وافيت ومركبها

ييطس وشارفها بالجهد مهزول

فدردت الشاة واستوفى رضاقتيه

أخوك والقوم من جهد مهزول

ولم تشاركه فى شدي فأنت على الد

إحسان والمدل مفطور ومجبول

واستمر فى سرد المعجزات والأمور الخارقة للعاده مثل ششق

الملائكة لصدرة الشريف وظليل الخمام له وغير ذلك من المعاني المكرره

التي لا تكاد تخلو منها قصيده من قصائده فى المدح .

وتكرار المعنى الواحد بأساليب مختلفة ليس عيبا فى المدائح

النهية ، لأن الجمال هنا يرجع الى الأسلوب ، وعرض المعنى الواحد

فى قوالب متعددة قد يكسبه تجديدا وحلاوة لاختلاف العبارات والتراكيب .

وقديما قالوا " المكرر أحلى " خصوصا عند المجبين والعشاق .

ثم انتقل الى غزواته صلى الله عليه وسلم ، وصبره وشجاعته ورباطه

جأش أصحابه وملائهم العظيم طلبا للنصر والشهادة :-

واستقبل الفتح في جيش يضيئ به
رحب القضاء وسيف الرعب مقبول
يكل أروع ضاح أسرتسه
له السى الحرب ترحيب وتأهيل
واختتم القصيدة بأبيات في الاستغاثه والتوسل وطلب المغفرة :-
ياأيها السيد الهادي الذي شرفت
بما حوت منه أنصار مقبول
يارحمة الله عمت كل ذي بشر
من الأنام فتمجيد وتاجيد

الى أن قال :-

قد دنس الثوب منى جهل مفترف
فهل أعود وشمس منه مقبول ؟

(ب) - البصير :-

ابتدا قصيدته بمطلع وعظي :-
الى متى انت باللذات مشغول
وانت عن كل ما قدمت مسؤول

وهذا المطلع يكون قد خرج على الطريقة التقليديه المألوفة عنده
أغلب من جارى قصيدة كعب بن زهير في الهداية بالفضل جمعيا
لكعب .

ومعد أبيات عديده في هذا الشأن خلص الى مدح النبي صلى
الله عليه وسلم ، بأنه خير خلق الله ، وأنه نجل الأكارم :

والمصطفى خير خلق الله كلهم
له على الرسل ترجيح وتفضيل
نجل الأكارم والقوم الذين لهم
على جميع الأنام الطول والطول

وذكر مولده صلى الله عليه وسلم ، وما حصل فيه من خوارق وآيات
دالة على نبوته وعلو شأنه :-

كم آية ظهرت في حين مولده
به البشائر منها والتهاوس
علوم غيب فلا الأرصاء حاكسة
ولا التقاوس فيها والتهاوس
اذ الهواتف والأنوار شاهدها
لذي السامع والأبصار مقبول

ثم ذكر اكبر آياته صلى الله عليه وسلم ، وأفاض في تفاصيلها
وهي القرآن الكريم :-

ان رمت اكبر آيات واكملها
كهاك من محكم القرآن تنزيل
وانظر فليس كمثل الله من أحد
ولا كقول أتى من عنده قيل

الى ان قال :-

لله كم أفضحت أفعالنا حكيم
منه وكم أعجز الأسباب تأويل

وذكر بعد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة ، وأنه
الشفيع الذي عليه الاعتماد يوم القيامة :-

وما محمد الا رحمة بعثت
للعالمين وفضل الله هذول
هو الشفيح اذا كان المهاد غذا
واشتد للحشر تخويف وشهووسل
فما على غيره للناس معتمد
ولا على غيره للناس تموسل

ثم ذكر الأسراء :-

سرى الى المسجد الأقصى وعاد به
ليلا براق يبارى البرق هذلول

وذكر من المعجزات شفاء الجرح بلمسه ورد العقل الى فاقده وبباركة
الطعام ، ورد العين ، ونبح الماء ، ونزول الخيث بدعائه صلى الله عليه
وسلم :-

كم عاود البرء من إعلاله جسدا
بلمسه واستبان العقل مخبول
ورد الفيين فى رى وفى شبيح
اذ ضاق باثنين مشروب وماكول
ومنيح الماء غديبا من أصابعه
وذاك صنع به فينا جرى النيل

ثم ذكر قصة النار ، وكيف أصبح عامرا وماهولا بوجود النبي صلى
الله عليه وسلم وصاحبه بداخله ، وشبههما باسدنين رايضين فى اشجار
ملته ، وكمل وصف النار بذكر العنكبوت ونسجها الواهن عليه ن

وأغيرتا حين اضحى النار وهو بيه
كمثل قلبى معمور وماهول

لأنما المصطفى فيه صاحبه الص
ديق ليشان قد أوامها غيل
وجلل الفار نسج المنكبوت على
وهن فياجذا نسج وتجلييل

ومعد سرد كثير من المعجزات دخل في مناقشة موضوعية مع النصارى
واليهود ، والمعروف عن البوصيرى أن له إلما بالتورا والانجيل ، ومعتقدات
اليهود والنصارى كما أن كثيرا من الذين جعلته بهم دواوين الحكومة مسن
الموظفين كانوا من المشهودين أو المنتصرين ، وكان يناقشهم وناقشهم
وقد يثور عليهم فيجوههم ويطل معتقداتهم .

من هذه الناحية جاءت مناقشته الأدبية هذه داخل قصيدة مدحه
النبهة ن

قل للنصارى الأولى ساءت مقالتهم
فما لها غير محض الجهل تليل
من اليهود استفدتم ذا الجحود كما
من الخراب استفاد الدفن قابيل

الى أن قال :-

موتوا بنميط كما قد مات قبلكم
قابيل إذ قرب القرمان هابيل

وهذه الابيات تدل على الماه بالكتب القديمة ، وثقافته القرآنية
الواسعة ، حيث ضرب لهم مثلا في قصة قرآنيه ، وانطلق البوصيرى بحسد
هذا يناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر محاسنه وفضائله التي لا تحصر
وأيامه الخالده التي اضححت غرة في جبين الدهر ، فذكر جهاده ،
ونزول الملائكة لنصرته ، وموم بدر وموم أحد وغيرها .

واختتم قصيدته كمادة المادحين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :-

دامت عليك صلاة الله يكلمها
من المهمين ابلاغ وتوصيل
ما لاح ضوء صباح فاستمر بسبه
من الكواكب قنديل فقنديس

* * *

تعليل وموازنة :-

(١) ابتداء ابن سيد الناس كثيره من شعراء المدح قصيدته بالفضل
مجاريا كعب بن زهير ، وكان غزله غزبا في الاسلوب والمبارات
والمعاني .

وكان استخدامه المحسنات واضحا في أسلوبه كثيره من أصحاب
البديعيات ، وذلك مثل قوله :-
" معذور ومعزول " فان بهما جناحا ناقضا

وقوله " لحسام البرق تقبيل " فانها من باب اضافة المشبه للمشبه
به ، ويمكن أن يكون في البرق استعارة مكنية ، حيث شبه البرق
بأنسان وحذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه وهو كلمة
" تقبيل "

وكذلك قوله " بسمت أزهاره " و " الزهر متسم " فالأنجمام
بين الشكل والضمون حاصل في مطلع ابن سيد الناس الفزلي
مع استخدام بعض المحسنات اللفظية واللجوء الى زخرفة المعنى
بالاستعارات والتشبيهات وغيرها .

(٢) أما البوصيري ، فإنه ابتدا تصيدته بمطلع فيه زجر للنفس وحض
على الزهد ، وطلب للاستعداد والتزود ليوم المعاد ، وكسان
أديبا منيياً ومنبهاً للمشاعر الدينية بتساؤلها هذا :-
الى متى أنت باللذات مشغول :
وأنت عن كل ما قدمت مسـؤول ؟

أما أسلمه فقوى رصين خال من التكلف جار على السليقة والذوق ،
ومعانيه أصيله نابغة من وجدان صادق وشعور متدفق ملسى
بالحب والأيمان +

(٣) وإذا اختلفا في البداية في مطلع تصيديهما فقد اختلفا فسى
النهاية أيضا ، فبينما اختتم ابن سيد الناس تصيدته بالتوسل
بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب المغفرة حيث قال :-
قد دنس الثوب منى جهل مفـتـرف
فهل اعود وثوبى منه مسـؤول ؟

اختتم البوصيري تصيدته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ،
حيث قال :-

دامت عليك صلاة الله يكفلها

من المهيمن ابـالـاغ وتوصيـل

(٤) أما المعاني فقد أتفا في أغلبها - ويمكن أن نعتبر اللاحق
استفاد من السابق - والمعاني التي ذكرها معا ، مثل
المعجزات كشق الصدر ونسج المنكبوت وبيض الحمامة والاسـراء
والمعراج وغيرها +

(٥) وعندما نأتى للمفاضله بينهما فأننا نقول :-
امتاز ابن سيد الناس برفقه الخزل والنسيب في مطلعته :-

يا حادي العيس طارحني حديثهم
فما الحديث عن الأجاب ملول
سَلِمَتْ ، مِلَّ بِي إِلَى سَلْمَى فَمُورَهَا
نَيْلِ الْأَمَانِي وَفِيهِ يُهَجَّرُ النَيْلِ

ونرى تقسيم الجمل ورقه الممضى في قوله :-

رَدَّ مَاءٌ وَجْهَكَ أَنْ عَزَّتْ مَوَارِدُهَا
فَكُلُّ صَمْبٍ بِهَا يَمْحُورُهُ تَهْيِيلِ

(٦) وانفرد البوصيري بالتفصيل والاستقصاء وطول النفس وسهولة
العبارة .

ففي كل حادثه يذكرها يفصل ويستقصى حتى يلم بجميع أطراف
الموضوع ، فعمدنا ذكر معجزة القرآن في قوله :-
ان رمت أكبر آيات وأكملها
كفاك من محكم القرآن تنزيل

استمر يفصل ويستقصى في عظمة القرآن وأعجازه في نحو ثمانية
أبيات آخرها قوله :-

وما بعد آياته حق لم تبسح * والحق ما بعده الا الأباطيل

(٧) وما امتاز به البوصيري في تصيدته روح الجدل والمناقشه مسع
اليهود والنصارى مما يدل على الماهه وسعة اطلاعه ، وذلك
في أبيات عديده في تصيدته .

(٨) واذا كان للبوصيري فضل سبق وطول النفس والاستقصاء ، فإن
لابن سيد الناس دقه العبارة ورقتها وجمال الأسلوب وقسده
وصفه معاصروه بأنه :- " صاحب الشعر الرائق ، والنثر الفائق " .

الفصل الثاني
مختارات من قصائد ابن سينا الناس
دراسة وتحليل

قافية التاء :-

بهذه القافية ابتداء ابن سيد الناس قصيدة من قصائده النبوية خفيفة الأيقاع ، عذبة عند الاستماع سهلة في أسلوبها حلوة في كلماتها وجرسها الموسيقي .

وهذه القافية ليست جديدة على المدائح النبوية فقد جاءت بهيئة قصائد خالده في المدائح النبوية قبل ابن سيد الناس ومعه .

ومن أبرز أولئك السابقين الشاعر الفحل دجبل الخزاعي ، فقد قال تائمه المشهورة في مدح آل البيت ، وهي تمجيد وتخليد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم مثلاً في عترته الطاهرة ورسالة الخالده وآله الكرام ، ومنها الذي يسمع مطلع الرائع الحزين :-
مدارس آيات خلت من تلاوة

ومنزك وحى مقفر العرصات

فلا تأخذه جلاله الموقف ولا تهزه روعة الذكرى (؟) ومن المتأخرين في الزمن عن ابن سيد الناس الذين أتت لهم قصائد في الذكرى النبوية على هذه القافية وكانت جيدة في بابها ، شاعرنا السوداني عبد الرحمن شوقي في ذكرى ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم في الأربعينات وأنشدها في نادي الحزجين بأمر دربان ، ومن أبيات هذه القصيدة :-
سلام الله ياعهد المواضي

وأيام الظبي والمرهفات

وعهدا فهيه جبريل نسي
يجي محمدًا بالمعجزات
ويدلى حجة من بعد أخرى
تنزل لها جميع الراسيات
يقول لهم اتيتكم رحيمًا
لأجمع شملكم بمسد الشتات
هلموا آمنوا بالله حقًا
تعالوا للسلامة والنجاة^(١)

والقصيدة طويلة أوردت منها هذه الأبيات للمثال فقط ، بمسد
هذا الاستطراد نعود الى قصيدة ابن سيد الناس .

نصوص من القصيدة نـ

رام من رسم الفلاة
بعض تلك اللفتات
فهو للوحش أنيس
اللف للفلات
ياسليما يتفنى * بأهيل السلميات
وسمير النجم شوقًا * لليالسي السميرات
ناديا أطلال سلمى * بالدموع الزفيرات
أدمع تضرع بالقلب * أوار الزفيرات
وزفير يستريح الطير * ف سح الصبيرات
عندما زمت مطايا * ها لرمي الجسرات
وحدى بالعيس حاد الـ * بسون منها بالشتات
قائلًا ودعت أنيس لوداع الأنسبات

(١) ملاح من المجتمع الوداعي - عهد تجليل ص ٥٨

أيها الهائم لا يفتؤ * يهوى الفتيات
عد عن سلمى وسل * ما فرتجيه للنجاة

وامدح الماحى ان احويت محو السيئات
أحمد الهادى رسول الله رب المعجزات
من هدانا بسناه * فى دياحى الظلمات
وازال الشك عنا * بزوال الشبهات
وهحا بالوحى لا * يألو سهيل الترهات
وآيات كتاب * واضحات بينات
مراهين بدت عن معجزات سافرات
مثل نبع الماء والاطعام عند الأزيمات
وحنين الجذع ييكى ناي تلك الآلمات
وانشاق البدر حقا ليس فعل النافثات

أوسع العالم غفوا عن جنائيات الجنات
وأتم الناس علما بخفايا المشكلات
كرم سح فأزرى بانسكاب الهاطلات

بعسد ما خاض لحرب القوم لسج الفمورات
فى سيفوف مصلتات ورمساح مشرعيات
وقلوب ليست فوق دروع سابقسيات
يسين انجاد مفاوسر محاريسب حياة
أسد غاب سمحوا فى حربهم بالمهجات

لرسول الله مدحى وعلى الله صلواتى
من قريش من قصى فى سرى السروات
من بنى هاشم المطعم ملق الجفكات

يا شفيع الخلق أودى بى حمل المحضلات
اثقلت ظهري ذنوبى أوثقتنى تهممات
فاذا شفعت فى أهل الخطايا والمعصاة
فأنا المذنب فاشفع والكثير الهفوات

بك يا خير البرايا * ارتجى نيل نجاتى
بك أحللت رجائى * بك انزلت شكائى
بك فى الميزان أرجو أن توفى حسنائى

فعليه من سلامى كل حسين وولاتى
وعلى آل مع الأصحاب أهل المابقات
ما بدأ الصبح فأودى بالنجوم الزاهرات

وقفه مع القصيدة :-

(أ) في الفقرة الأولى وهي مجموعة الأبيات الفزلية في مطلع القصيدة نلاحظ أن الشاعر لم يسلك مسلك سابقه من شعراء المدح الذين دخلوا في موضوع المدح مباشرة أمثال دجبل الخزاعي ولم يسلك مسلك الشعراء المتصوفين الذين تحدثوا في مطلع قصائدهم عن بنت الكرم ثم خلصوا الى غرضهم ، بل بدأ قصيدته بالفتل الرقيق ومناجاة الاجه والطعائن والأطلال على طريقه شعراء العرب الأوائل .

(ب) وإذا نظرنا الى هذه الأبيات من ناحية الشكل والضمون أو من ناحية اللفظ والمعنى ، فأننا نجد الرفع والجزالة والموسيقى العذبة والجرس الرنان والكلمات الهادئة المميزة .

كما نجد فيها من المحسنات اللفظية والمعنوية التي جرى عليها اصحاب البديعيات الكثير بدون تكلف أو معاناة .

مثل كلمة " رام ، وريم " فان بينهما جناسا - حيث اتفقا في أغلب الحروف واختلفا في المعنى .

ولفظه " انيس ، وآلف " فان فيها مراعاة النظير ، فبان الأنس نظير للألف .

ولفظه " سليما " والسلمات " و " سمير ، والسميرات ، وحدي ، وحادي ، وأنس والآنسات " .

كل هذه الكلمات بها محسنات لكنها جاءت بلا تكلف أو اخلال بالمعنى .

(ج) ومن ناحية الصور والخيال والتشبيهات فأنتا نجد خيالا رائعا وتشبيهات مثيرة ، ونحس لوحة اليمين وألم الفراق كأنه عاش تجربة غزل وحب حقيقية وانقضت عنه تلك اللحظات .

(د) ونجد في هذه الأبيات أيضا صورا حية للبادية من الألفاظ الموحية بها ، مثل - ريم - والفلاة - والوحش - وأطلال - ومظاياها - وحدي بالعيش - .

الى غير ذلك من الكلمات التي تدل على الخيال البسدي للشاعر .

٢ - وأبيات الفقرة الثانية من القصيدة تخلص الشاعر تخلصا حسنا من الفزل الى المدح :-

أيها الهائم لا يفتويهم سوى الفتيات
عد عن سلمى وسل ما ترتجيه للنجاة

٣ - ومن أبيات الفقرة الثالثة دخل في مدح النبي صلى الله عليه وسلم نـ

وإمدح الماحي ان أحببت محو السيئات . . .
فمدح النبي صلى الله عليه وسلم بأنه الماحي للذنوب ، والهادي في ظلمات الشك ، والسدي أزال بالوحي وآيات الكتاب البينات كل الأوهام ، وكان في ذلك مهيدا بالمعجزات الباهرة ، والبراهين الواضحة ، مثل نبع الماء ، وحنين الجذع ، وانشقاق القمر

٤ - وفي أبيات الفقرة الرابعة مدح النبي صلى الله عليه

وسلم ، بالحلم ، والملم ، والكرم ، وهذه معاني شائعة
أكثر منها شعراء المدائح النبوية .

٥ - وانتقل في أبيات الفقرة الخامسة الى وصف ما غناه النبي
صلى الله عليه وسلم ، من عناد وخصام من المشركين فسي
سبيل دعوته ، وما خاضه من معارك لأجل نصرة الحق ،
وفي هذا المقام وصفه بالشجاعة والثبات ، ووصف أصحابه
الكرام بالتضحية والفداء .

٦ - وفي أبيات الفقرة السادسة خص النبي صلى الله عليه وسلم
بالمدح ، وجعل **لِلَّهِ** سبحانه وتعالى بالصلاة :-
لرسول الله مدحى وعلى الله صلاتى .

ثم ذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من قريش ،
وجده قصي الذي تنسب اليه البطون القرشية ، وهو مسن
بنى هاشم ، وهاشم مشهور عند القبائل الحوية بقري الأضياف .
٧ - وأبيات الفقرة السابعة في الاستغاثة وطلب الشفاعة ، والشكوى
من ذنوبه .

وهذه ظاهره انتشرت وتصلت في عهد الظلم في المالم
العربي ، فأكثر شعراء المدح من الشكوى من أنفسهم ومسئ
حكامهم فأصبح لا ملجأ لهم الا الى الله والى رسوله يطلبون
الأخذ بأيديهم في الحياة ومعد المات .

٨ - وأبيات الفقرة الثامنة استغراق في الضراعة والدعاء والشكوى :-
ياك أملت نجاتى
ياك أحللت رجائى

وهذه الضراعة العميقة نحس بها عند كثير من شعراء ذلك العهد ، أمثال ابن الفارض ، والبوصيري ، وعبد الرحيم البرعي .

قال البوصيري في إحدى قصائده :-
واقفك بالذنب العظيم المذنب
خجلا يعنف نفسه ومذنب

الى أن قال :-

ضاقن مذاهبه عليه فمالسه
الا الى حرم بطيبه مهـرب
متقطع الاسباب من أعماله
لكنه برجائه متسهب
وقفت بجاه المصطفى آماله
فكأنه بذنوبه يتقرب

وقال عبد الرحيم البرعي في مرض ألمَّ بابن له وأعيته الحيلة

في علاجه :-

ابنى دونك عبرتى وتنهدى
كمدا عليك فكم أعيد وأبتدى
ابنى مالى لمثلك حيلة
لكن أمد الى ابن آمنه يمدى
ان ضاف بى وك الخناق فلم يصق
عنى وعنك عريض جاه محمد

وأبيات الفقرة التاسعة كانت خاتمة للقصيد بالصلاة على النبي
صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليه وعلى آله وأصحابه كسـل
صباح جديد .

تعليق :-

بنظرة سريعة الى هذه القصيدة النبوية نحس بالمأطفة الصادقة والمماناة النفسية العميقة ، وذلك يتضح لنا من خلال التعبير والتصوير وما تحمله الالفاظ والمعاني من احساس ومشاعر ، وتجلى صدق العاطفة في المعاني التي تنساب في النفس وتتجاوز السمع حتى تستقر هادئة مطمئنة في الأعماق .

ومماناة الشاعر ومحجته الحقيقية تظهر في المعاني المكسرة التي لا يكاد يذهب عنها بعيداً إلا ليعود اليها ثانية وهذا يدل على عمقها وتأصلها في نفسه .

فهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بالشجاعة والحلم ، وكبر الآباء والأجداد ، ثم يعود الى ذلك ثانية في اسلوب آخر من غير ملل ولا سامة .

وهذه التجربة الصادقة في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تأتي في اسلوب سلسل وعبارات جزلة وصور شاختة لا سيما صور الممارك وما فيها من خيل ودرع وسيف وأبطال واهبين نفوسهم لله يبتغون نصراً من الله ورضواناً .

قافية الجسيم :-

من الظواهر البارزة التي نجدها في هذه القصيدة ظاهرة
اشتهر بها المادحون من شعراء الصوفية وغيرهم في القرون
الأخيرة ، وهي الاستفراق في تنزية الأله وتقديسه وتمجيدة
ورفع أكل الضراعة اليه في صدر القصيدة النبوية ثم الدخول
بعمد ذلك في المدح *

وقد يطول الثناء على الله وتنزيهه حتى يصبح قصيدة كاملة
وتسمى عندهم " بالربانيات " ويقصدون أنها متعلقة بسذات
الرب سبحانه وتعالى *

ومن الذين اکتروا في مدائحهم النبوية من الربانيات الصارف
بالله الشيخ عبدالرحيم البرعي من علماء القرن الخامس *

قال في احدى قصائده :-

من لا يقال بحال عنه كيف ولا

لقم له ليم تعالی ربنا الله

ولا يفسيره مر الدهور ولا

كر المصور ولا الأحداث تخشاه

ولا يحبر عنه بالحلول ولا

بالانتقال دنا أو ناء حاشاه

وقال في قصيدة اخرى :-

ومن هو فرد لا نظيره ولا

شبيهه ولا مثل به يتمثل

ومن كلت الألفاظ عن وصف ذاته
فليس لها في الكيف والأين مدخل (١)

وإن سيد الناس في قصيدته " الجيمية " هذه التي نحن
بصدده الحديث عنها ذكر أبياتا في تنزيه الأله وتمجيده والثناء عليه ،
ثم دخل بعد ذلك في المدح .

نصوص من القصيدة نـ

١ - من العرجسي ان كان بابك مرتجا
وأى رجاء في سواك لمن رجبا
إذا أمَّ غاص باب غفوك راجيا
رأى غفوك المأمول أقرب مرتجى
وفاز بما يرجوه حتى كأنه
لما نال من غفوك بما قد جنى نجا
فلا يرح غير الله في كل حالة
فما فاز الا من به علق الرجبا

* * *

٢ - تنزه عن عصر وأين ومشيئه
وكيف وتجسيم وما مائل الحجا
وليس بمولود ولا هو والسد
هو الله ملجا من الى قصده لجا

(١) ديوان البرعسي في المدائح الربانية والنبوه والصفويه ص ٢٩ /
حافظ حسن المسعودي - الطبعة الثانية ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م
مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

هو الصمد الفرد الذي لا تحده
عقول له منا الثناء تأرجحا

* * *

٣ - الهى كم أوليت سابغ نعمة
حلت منهنجا مازال بالفضل ينهنجا
رويت ظمئنا وأشبهت طامنا
ولبييت مضطرا وأغنييت ملفجا
وأمنت من خوف وفرجت كربيعة
وعافيت من داءٍ وقومت أعوججا
ومنك هدى التوحيد يسطع نسوره
فيسطو على ليل الضلال إذا سججا

* * *

٤ - منبت بإرسال النبي محمد
هدى منك يهدى من لتوحيدك التجا
فأبدى منار الحق بعد خفائسه
كلاح ضوء الصبح فى سدفه الدجا
وأهدى الى الآفاق كل عظيمه
من الدين يبدو صبحها متبلجا

* * *

٥ - توم جناب الهاشمى محمد
وأنصاره الأنصار أوسا وخزرجا
وما علموا أن الأله يمدده
بجبريل فى الأملاك كالملاك توججا

فما انقلبوا الا شديدا اساره
والا قتيلا فى السماء مخرجنا
والا شريدا بالقرار مميرا
جانا اذا لاقى كيدا مدججا

٦ - عليه صلاة الله ثم سلامه
مدى الدهر ما أهدى الرياض بنفجنا
وما زار مخضر الرىس القيم باكينا
فاضحك ثغر الأقحوان المفلجا

وقفه مع القصيدة ن

- (١) فى أبيات الفقرة الأولى نجد رفع ألف الضراعة الى الله والوقوف ببابه والأتجاه اليه .
- (٢) وفى أبيات الفقرة الثانية نجد تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الزمان والمكان والأين والكيف وكل ما خطر بالعقل .
- (٣) وفى أبيات الفقرة الثالثة نجد تعدادا لنعم الله الكثيرة التى لا يحصيها المد والتى تستحق الاعتراف والشكر " لئن شكرتم لأزيدنكم " .
- (٤) وفى الفقرة الرابعة اعتبر ارسال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الى الخلق تفضلا وكرما ومنة منه سبحانه وتعالى على عباده .

وهذا المعبر عبر الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ،
بعد الثناء على الله وتنزيه ذاته والوقوف على باب فضله .

فمدحه بأنه أظهر الحق واضحا بعد خفائه ، وأرشد الخلق
الى عظام الأمور فى الدين والدنيا ، وجاهد فى الله المشركين ،
وأحب وأبغض فى الله .

(٥) ومن الأبيات الرائعة المجسمة لوصف المحارك والتي تنقلك
الى ميدان القتال فتسمع وقع الخيل وصليل السيوف ،
وترى لمعان البيض وغبار المعركة ، قوله فى الفقرة الخامسة نـ
فجالت مواضى البيض فى عرصاتهم
فأخلق ربح الأنس منهم وأنهجا

وتحس بالسكون والوحشه ، والذعر والهلع الذى أصابهم ،
والبور الذى خيم على ديارهم بعد الهزيمة فى هذا البيت :-
دعا داعى البوار فأسرعوا
ونادى منادى البين فيهم فأزعجا

ونجد حسن التقسيم وجمال العبارة فى قوله :-

تلم جناب الهاشمى محمد
وأنصاره الأنصار أوسا وخزرجا

وفى قوله فى وصف الأعداء المهزيمين :-

فما انقلبوا الا شديدا إساره
والا قتيلا فى الدماء مخرجا
والا شريدا فى المراة مميرا
جانا اذا لاقى كيدا مدججا

٦ - كانت أبيات الفقرة السادسة خاتمة رائعته من الناحية البيانية والبلاغية ، وسأعرض لبيان ذلك فى التعليق .

تعليق :-

بنظرة سريعة الى هذه القصيدة من ناحية الأسلوب والمعارف نجدها غنية سهلة ، ومن ناحية التشبيهات والاستعارات نجدها رائعة متعانقه ، وخصوصا فى البيت الأخير ، فقد جعل القيم انسانا يزور ، ولنا أن نقول فى اجراء الاستعارة شبه القيم بأنسان ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو زار على سبيل الاستعارة المكنية .

وفى " باكيا " استعارة أيضا حيث شبه نزول المطر بالبكاء - بجامع الأنهار فى كل - ثم استعار البكاء للنزول بكثرة وغسازة على سبيل الاستعارة التصريحية .

وفى " ثقر الأحقوان " استعارة مكنية حيث شبه الأحقوان وهو نوع من الزهر بأنسان له ثقر يضحك ، وحذف المشبه به وهو الأنسان ورمز اليه بشىء من لوازم وهو الضحك ، فى أضحك ثقر الاحقان .

ولنا أن نعتبر " ثقر الأحقوان " من باب اضافة المشبه به للمشبه ، ويكون المعنى - أحقوان كالثقر المفلج - .

وهذا البيت الأخير مع استعاراته العديدة المتعانقه يرسم لنا صورة كلية للأرض المخضرة المزدانة بالورود والأزهار المتفتحة والمطر ينزل عليها بغزاره فيزيد من بهجتها ونضرتها وجمالها .

وعمودتنا الى أول القصيدة نجد من المحسنات البديعية الجناس فى شطر البيت الأول " المرتجى ، ومرتجا " حيث اتفقت

الكلمتان في اللفظ واختلفتا في المعنى .

وفي قوله " وأنصاره الأنصار " جناس أيضا لأنه يعني بانصاره
الأولى أتباعه ، والأنصار الثانية يقصد بها كلمة الأنصار التي تقابل كلمته
المهاجرين عندما يذكر اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نقول ان هذه القصيدة جرت على طريقته ناظمــــس
المدائح النبوية في الصور الأخيرة ، وبها قدر غير قليل من المحسنات
اللفظية والمعنوية الا أنها جاءت من غير تكلف ولم تفسد المعنى ، بسبب
جاءت بسهولة التعبير وروعة التصوير مع احتذاء شاعرنا ابن سيدالنساس
للسابقين له في كثير من المعاني .

والمعاني كما يقول نقاد الأدب مطلق شائع للجميع يلبسونها
ما يشاءون من الثياب ، والفضل للمبرز في حسن الصياغة وجمال الأسلوب .

٢ - فهواها منيتي ما
لي عنها من بسراج
غير مدحى من به
يشرف قدرى وامتداحسى

٣ - أحمد الهادى رسول الله
ذوالمجد الصراج
من معد من قريش
سادة العرب الفصاح
من بنى هاشم المط
عم أندى متمسح
سيد الرسل رجائى
لنجاتى ونجاحسى
من به فخر بنى آدم
ما فيه ملاحسى
من رواه الحسن منه
لاح كالمصباح اللينحاح
من سماكل سما
وكفى كمال كصاح

٤ - من به ختم مقال
فتحها خير افتتاح
أنبياء الله أهل السب
قى فى فوز القيداح

لا يجارهم سبحانه لا
ولا من الرسل
وهو أعلاهم محمدا
نقل أخبار صحاح
وله في الحشر جاءه
زنده غير شعاع

يا رسول الله يا
أكرم أرباب السموات
طال شوقى وكأنى
وحنينى ونواحينى
نحوشواك فهل لى
بمد جس من سراج ؟
فأرى ما أتمنى
من مفانيك الفساح
وأرى صنبرا منى
بسر نيك وصلح
وأرى فى روضة الخلد
د اغتافى واصطباحتى
روضة من جنسية
ما لى عنها من سراج
وعلى طوعى الأمانى
لو أتمنى واقتراح

طرت أبغيبها وأتسى
طار مقصوصى الجناح ؟

٦ - فأجزنى يارسول
الله من سوء اجتراحى
أنت ذخرى وممادى
ومالدى وسلاحى
ومجبرى فى معيادى
من خطاياى القباح
وذنبوب أوبقتى
وهيا اخشى اقتضاحى
سالها غير رسول
الله آسى من جراح
٧ - فمليه وعلى الأصحاب
والأهل الصّباح
من صلاة وحيات
وتسليم مقباح
وثناء عطر الـ
أكوان من كل النواحى

وقفه مع القصيدة :-

١ - أبيات الفقرة الأولى من القصيدة عبارة عن مقدمة فى

الفضل والنسيب اتخذها الشاعر توطئه للمدح ، ونجد الأكتاف من استعمال المحسنات البديعية والتلاعب بالالفاظ مما يدل على تمكن ابن سيد الناس من صناعة الشعر .

من ذلك الجنس التام بين " صاح ، صاح " في البيت

• الأول

فإن صاح الأولى يقصد بها النداء - أى يا صاحبي -
وقد دخلها الترخيم وحذفت منها ياء النداء فأصبحت صباح ،
- صاح - الثانية - يقصد بها أنه غارق في حب ذات المشاح
وغير فائق منه .

وقد جانس بين اللفظين مع اختلاف المعنى من غير

تكلف ولا إخلال بالمعنى .

وجاء البيت الثانى وهو يحمل بين طياته مثل ما

حصل الأول .

فبين كلمتى - لاج - فى صدر البيت ، - ولاج - فى

عجزه جناس تام أيضا .

فلاج الأولى يقصد بها ظهور الشئ بعد اختفائه ،

ولاج - الثانية - يقصد بها اللام والمائل ، ومع اختلاف الكلمتين

فى المعنى فقد جانس الشاعر بينهما دون تكلف .

وهذه المقدمة الفزلية الرقيقة تذكرنا بشاعرنا السودانسى

عثمان هاشم حيث قال فى احدى قصائده الفزلية :-

هذى الحسان وذى كؤوس السراج
فاشرب وغبن اليوم لى يا صاح

الى أن قال نـ

فدح المدير يكف عن كاساته
وطوف لى بالرتيق لا بالسراج (١)

٢ - وانتقل انتقالا حسنا من الفزل الى المدح ببيتى الفقيه
الثانيه .

وهذا يكون قد عبر محيط الفزل الى عالم المدح والهيام
فى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بدون غناء .

٣ - وفى مجال المدح الذى تضمنته الفقرة الثالثة ذكر أن النبى
صلى الله عليه وسلم من سلالة طاهرة وأصل كريم ، فأبائه
من سادة القرشيين وقادتهم الكرماء .

وقد جرت عادة المادحين ورواة السيرة النبوية أن يصفوا
الرسول صلى الله عليه وسلم بالجمال الحسى والكمال الخلقى ،
وهذا ما فعله ابن سيد الناس أيضا :-

من رواء الحسن منه

لاح كالصبح الليساح

من سماكـل سمـاء

وكفى كـل كـفـاح

وتوالى النعوت والأوصاف فى الأبيات كإقامة المودة بين الناس

(١) ملاحظ من المجتمع السودانى - للاستاذ حسن نجيلة .

بدل العداوة والبغضاء ، واقامة الهدى بعد الضلال ، الى غير ذلك .

٤ - وفي آيات الفقرة الرابعة وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الأنبياء ، وأعلام قدره وأنه صاحب الشفاعة الكبرى ففى الحشر ، وصاحب الكوثر المورود يوم القيامة .

وقد كرر هذه المعانى فى كثير من قصائده مع اختلاف الأسلوب .

٥ - وعند فى آيات الفقرة الخامسة الى المناجاة وحث شوقه وحنينه الى شوى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم جرى على عادة معاصره من المادحين بتفضيل تراب المدينة المنوره على كل البقاع نـ

ترسة قد فضلت * بطاؤها كل البطاح

وهجر عن مدى شوقه الى رؤية تلك البقاع فيصور نفسه بطائر مقصوص الجناح :-

طارت أبغيبها وأنسى

طار مقصوص الجناح ، ما ؟

٦ - وجنح الى التوسل وطلب الاستجارة فى آيات الفقرة السادسة ، ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه الذخر ، والمسالذ ، والمجير والآسى من الجراح .

٧ - وكانت الفقرة السابعة صلاة وسلاما وتحية للرسول صلى الله عليه وسلم وأهله وصحابه .

تعليق :-

في تعليقنا على شكل هذه القصيدة وضمونها نقسول ان أسلوبها متين ، وثناءها رصين ، وأوزانها وتوافيقها طيبة الوقع فسي النفس والسمع ، أما من ناحية المضمون فإن المعاني القديمة مطروقة ، فالخزل والنسيب الذي أخذ قدرا كبيرا في صدر القصيدة برغم جماله وروعة خياله ، إلا أن معانيه من المعاني القديمة التي أكثر منها الأدباء وخصوصا المادحون في عصر ابن سيد الناس وقبلة ، ومعاني المدح التي جاءت في وصف شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم من كسوم الأنساب وعلو الأخلاق وغيرها ، مذكورة في العديد من كتب السير النبوية ولدى مؤرخي تلك العدة من فجر الإسلام ، فهي قديمة أيضا .

وإذا كان هناك فضل يمكن أن يضاف الى ابن سيد الناس فهو من ناحية الصياغة وعرض المعاني في قوالب جديدة أكسبتها حلاوة وجعلت السمع يقبلها والنفس تستلذها وتستوعبها من جديد .

وكم يلد المعنى وحلو وإن كان قديما لجمال عرضه وتقديمه .

٤ - قافية الدال :-

استهل ابن سيد الناس قصيدته التي تحت هذه القافية
بنسيب غذب وشوق وتذكار للأحبة ومراتح الصبا .

نصوص من القصيدة :-

١ - ترى هل زمان الرقمتين يعود
فنتجز من بعد المطال وعود
وهل لليالي السفح سفح حجر
رجوع فمهدى بالديار بعيند
ليالى أطلقت العنان مع الصبا
وقلبي بحب الثانيات عبيد

٢ - وأصرف وجهي نحو مدح محمد
فأرتح في روض الرضوي وأرد
جيب اله العالمين ومن له
من الله قرب ما عليه مزيد
سما رهبة حتى السماوات دونه
صمود به تمت لدينه سعود
وما نال سباتي الى المجد حظه
وان أسففته أسعد وجدود
سبوق فما قيد الأوابد انه
ليمسك من الطرف عنه قيود

٣ - من النفس النسر الذين سما بهم
إِيَاءَ وَأَبَاءَ عَلُوا وَجِدود
يُغَافُ وَرَجَى مِنْهُمُ الْبَاسُ وَالنَدَى
وحسب الملاي بأس ينال وجود
بني هاشم أقصى قضى علا فما
لغيرهم فيما نحوه صمود
يلوذ بهم ركب الحجيج فكلهم
الس باب عمرو في السنين وقود
مرادهم عمرو اذا القوم استنبوا
وعمره الملاي في المحلات مسرود
مضى وثناء منه باق مخلد
وللشكر عن ذاك الجميل خلود
جدود علت قدر الجدود الأولى مشور
وما كل مجد طارف وتليد
ربا أصلهم والفضل يزداد دائما
وما كل فضل ثابت وزيد

٤ - عليه من الله الصلاة معادة
يجود بها منيا عليه مجيد
وللاكل والصحب الكرام كماله
تكر عليهم دائما وتمسود
مدى الدهر ما قامت حمائم أيكاة
تنوح فتبدي شجوها وتمسود

وقفه مع القصيدة :-

١ - عندما ننظر الى مطلع القصيدة الغزلي نلاحظ الآتي :-

(١) ان الشاعر ينظر بعين لاقطة الى قصيدة جميل بثينة :-

ألا ليت أيام الصفاء جديدا

ودهر تولى يا بشمين يعسود

فهو يأخذ من ألفاظها ومعانيها ويسير على هداها ، فشلا

قوليه :-

لقاصرة الطرف التي كم لظرفها

أسير ومثلنى فى الفرام شهيد

مأخوذ الى حد كبير من قول جميل :-

لكل حديث بينهمين بشاشة

وكل قتيل بينهمين شهيد

وإذا كان غزل ابن سيد الناس فيه سرقة وملاحظه لاسلوبه

ومعاني جميل بثينة فهو لا يخلو من الأبيات التي نجد فيها

جدة المعاني وسلامة الذوق مثل قوله :-

ولاهيةٍ لم يله عنها متسيم

ونائمة فيها الميون هجود

وقوليه :-

عجبت لقلبي كيف يحمل جهها

ضعيف يقاسى الحسب وهو شديد

٢ - وبالبيت الأول من أبيات الفقرة الثانية يتخلص تخلصاً حسناً من الفزل الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فيمدح حبه بأنه حبيب الله ، صاحب المكانة القريبه عند الله ، والرتبه العاليه التي لا تساويها رتبة .

٣ - ومنتقل في أبيات الفقرة الثالثة الى ذكر أمجاد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم فيذكر أنهم أهل مجد وشهامة وكرم ممن قديم الزمان فمنهم يرجى الندى ، ومنهم يخشى البأسى ، ومن كرمهم ما يفعلون بحجاج بيت الله من ايواء وأطعام حتى في سنين الحسر والشدة .

صح ان القصيدة في المدح ما عدا مقدمتها الخزية نجسد الشاعر يلتفت فيها كثيراً الى معاني جميل بثينة وتعابيره فينقلها من بابها وهو الفزل الى بابها فهو وهو المديح .

من ذلك قوله في أبيات هذه الفقرة يمدح جدود النبي صلى الله عليه وسلم يكرم الأصل :-

ربا أصلهم والفضل يزداد دائماً

وما كل فضل ثابت وزيد

فقد نقل هذا المعنى من قول جميل في الفزل :-

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلني

من الحب قالت ثابت وزيد

وفى أخذ المعنى وتحويله من باب الى باب آخر ، كأن يكون فى الخزل فينقله الى المدح نوع من البراعة والاعتدال والأخذ بالحسن الذى لا يحويه نقاد الأدب حتى أنهم قالوا :-

" من أخذ معنى عاريا فكساه لفظا من عنده كان أحق به " (١)

وأمر المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول :
" لولا أن الكلام يحاد لنقد " .

والمعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقى والنهطى والزنجى والتفاضل فى الألفاظ ووصفها وتاليفها ونظمها (٢)

٤ - أبيات الفقرة الرابعة كانت خاتمة التقليدية ، صلاة وسلاما على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى لا تخلو من المحسنات مثل - تجود ، و - مجيد ، وتكر ، و - تعود .

تعليل :-

إذا أردنا أن نقول شيئا فى التعليل على هذه القصيدة فأول ما يظالنا هو التحسر والبكاء على أيام الصبا الذى نجسده فى صدر القصيدة ، فكثيرا ما تحسر الشعراء على أيام الصبا حيث تحلو الحياة ولذ اللقاء وطيب الأنس والسمر ، من أولئك الشعراء جميل بن معمر فى داليتة المشهورة ، وشاعرنا السودانى محمى

(١) دلائل الأعجاز لمبدى القاهر الجرجانى ص ٣٤٥

(٢) مذاهب النقد وقضاياها / د / عبدالرحمن عثمان / ط / ١٣٩٥هـ

سعيد المباسي الذي قال في ذكر أيام شبابه الخضة ثم مصر :-
مصر وأيام الشباب * ^{يا النفس} من لى بهما
وفتية سمرتهم * فاقوا الزمان همما
خير شباب حملوا * مع السيوف القلما (١)

وابن سيد الناس لم يعان تجربة حقيقية في حب الغائبات
وعشق الفاتنات كجميل بن معمر وغيره ، وإنما هو خيال شاعر نسدم
على أيام شبابه التي ذهبت لها ولعباً كما يبدو له ، وطاد اكسر
جدية ونضجا عقليا فأسف على الماضي ووجه نفسه وعواطفه ومواهبه
نحو الله ونحو مدح رسول الله توجيهها ، عسى أن يعض ما فات
من غلة ضياع وقت .

أما بقية فقرات القصيدة فهي كثيرها من قصائد المدحيسة
رصانة في الاسلوب ودقة في التصوير ما اكسب المعاني حيوية
وتجددا على السمع .

(١) ملاح من المجتمع السوداني - للاستاذ حسن نجيلة .

٥ - قافية البراء :

تقع هذه القصيدة الرائية لابن سيد الناس في ثلاث وخمسين بيتا منها ثلاثة عشر بيتا في النسيب وهي من عيون ما قاله في المدائح النبوية في ديوانه المخطوط .

نصوص من القصيدة

١ - الا خاطر في لجة الحب خاطر

وقلب بحب العاصرية عامر

وطرف قضى ليل التمام مسامرا

نجوم الدياتجى فهو ساه وساهر

يببت اذا نام الخلي مسهدا

يؤرقه للبين دمع مسامر

وينم حينما بالوصل وتارة

يُرى وهو بين القطع والوصل حائر

يقاسمى شوع الغرام وعلمه

كعلمى بما يلقاه شاك وشاكر

فإن لا منى في الحب إنى لطائع

وان قادن للصبر انى لصابر

وأما خلى بالمحبين عابث

جهول لما لم يدر هاج وهاجر

يلوم وما مسرت بوجرة عيسه
ولا أسرته من ظباها جاذو

٢ — وما الحب الا النار في البعد أنصريت
وفي القرب جنات النعيم سواقر
ولا شيء أخلا منه في حالة الرضى
وقد صد عن صد حبيب مهاجر
سوى مدح خير المرسلين محمد
نبي زكت أعرافه والعناصر

٣ — نبي علا في كل فضل أخاعلا
وتفضيله في الذكر يتلوه ذاكرا
هو الرحمة المهداة للخلق كلهم
لقد نال منه البرّ بزرّ وفاجر
من الأمن في الدنيا وفضل حسابهم
إذا ضمهم يوم القيامة حاشرا

٤ — مناقب شتى أردفتها مناقب
تبيد الليالي وهي منهم عوامر
لا تحرهما في كل حين أوائل
فليس لها طول الزمان أو آخرا

عليه صلاة الله مالج بارق
بروض وما فاحت سحيرا أزاهر

وقفة مع التصيدة :

- ١ - بنظرة سريعة لآبيات الفزل في الفقرة الأولى نلاحظ الآتي :
الكلمات العربية القديمة التي تعد أولها الشعراء الاقدمون
وصاغوها في ادبهم ، مثل - الحامرية ، وليل التمام ،
ونجوم الدياجي ، ونام الخلى ، ويورقه للبين ، وجرة ،
و - عيس ، و - ظبا ، و - جآدر ، و كل هذه
الكلمات تشير الى معاني تحدث عنها شعراء العرب
الاوائل وصاغوها في شعرهم واستوعبها شاعرنا ابن سيبد
الناس فاعادها الينا مرة ثانية في غزل عفيف رقيق ليس
مقصودا لذاته وانما هو مقدمة للمدح .
- ٢ - وفي آبيات الفقرة الثانية تام بموازنة بين حلوة القرب وصراحة البعد ،
وأراد أن يتخلص بذلك تخلصا حسنا من الفزل الى المدح وقد
فعل ، ودخل في المدح بدون عناء أو تكلف .
- ٣ - وفي آبيات الفقرة الثالثة كور المعاني القديمة التي لا تكاد تخلو
منها تصيدة من قصائده .
- ٤ - وقد ختم القصيدة بأبيات جزلة الاسلوب فخمة المعاني وكأنى به
استحضر معنى قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح النبي
صلى الله عليه وسلم :

له همم لا منتهى لكبارها
وهمة الدنيا أجل من الدهر

تحليق :

تمتاز هذه القصيدة بوضوح المعاني وقوة السبك ، وفيها اشارات لبعض استعمالات القدماء ، وهى على طولها فالرقة والجزالة تضطرد فى أسلوبها رغم المحسنات البديعية الكثيرة التى لم تؤثر على الأسلوب والمعانى *
من تلك المحسنات - " خاطر ، و - خاطر ، و - العامرية -
عامر - فى البيت الاول * فان فى هذه الكلمات جناس لتوافق الالفاظ واختلاف المعانى *

وفى كلمة - " القطع ، و الوصل " فى البيت الرابع مقابلة وفى كلمة - " الصبر ، و صابر " فى البيت السادس جناس وكذلك كلمة " الورد ، و توريد " فى البيت التاسع بها جناس ناتج لاتفاق الكلمتين فى أغلب الحروف *
وفى كلمة - " القرب ، و البعد " فى البيت الحادى عشر مقابلة ، وفى جملة - " سرقت منه اللواحظ " استعارة مكنية حيث شبه اللواحظ بانسان يأخذ خفيه ، ثم حذف المشبه به وهو الانسان ورمز اليه بشئ * من لوازمه وهو كلمة " سرقت " على سبيل الاستعارة المكنية ، ويمكن أن نجري الاستعارة فى " سرقت " حيث نشبه التلطف فى طلب النوم بالسرقة ثم نستعير " سرق " بمعنى طلب او أخذ خفية على سبيل الاستعارة التبعية *

:: الباب الثالث ::

~~~~~

نثره وخصائصه

(( الفصل الاول ))

النثر في عصره : ( ٦٧١ - ٧٣٤ هـ )

إذا ألقينا نظرة عابرة على فن النثر في عصر ابن سيد الناس نجد له طابعا خاصا يميزه في هذه المدة عن غيرها ، وهو في هذا العصر متعدد ال نوعية ، فمنه الرسائل الديوانية ، والرسائل الاخوانية ، والرسائل التعليمية والتعريفات والتحليلات التي تكتب في مقدمة كتب ودواوين الاصدقاء بغير من الاعلاء من شأنها .

ومن مميزات النثر البارزة في هذا العصر ما ظهر في أسلوب الكتاب والادباء من ميل شديد الى استعمال المحسنات البديعية واعتبار الظفر بوحدة منها شيئا يتباهى به الاديب ويزهو به على غيره من الادباء .

ومن ناحية المعاني كان الميل قويا الى المبالغات والاكتثار من عبارات التفضيم والتعظيم في جانب المخاطب وخصوصا اذا كان أميرا أو كبيرا .  
ويقابل ذلك في جانب المرسل المبالاة في عبارات التواضع المشين مثل " المملوك " وغيرها .

وبرغم هذا يرى بعض النقاد والكتاب أن النثر في هذا العصر قد قام بواجبه وجبر عن مآثر الحياة المختلفة تعبيراً ينفي عن كتابه تهمة العجز والتخلف .

والرسائل الديوانية متعددة الموضوعات والمناسبات منها ما يتبادله  
الملوك والسلاطين فيما بينهم في الامور المهمة والاحداث للكبيرة في الحروب  
أو السلام .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ في عهد المماليك - عصر ابن سيده  
الناس - جملة من هذه الرسائل .

تختار منها هذه الرسالة وهي من تحبير الكاتب محي الدين بسن  
عبد الظاهر على لسان السلطان قلاوون الى السلطان أحمد غازان سلطان  
التتار ، ردا على رسالة منه في طلب الهدنة بعد اعتناقه الاسلام .

قال ابن عبد الظاهر " على لسان قلاوون " :  
" بسم الله الرحمن الرحيم بقوة الله تعالى يتقبال دولة السلطان  
الملك المنصور قلاوون الى السلطان أحمد .

أما بعد . حمدا لله الذي اوضح بنا ولنا للحق منهجا ، وجاء بنا  
فجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، والصلاة والسلام  
على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي ، نجى به أمته ، وعلم  
كل نبي ناجي ، صلاة تميم ما دجا ، وتتمير من داجي .

وصل الكتاب الكريم ، المطلق بالتكريم ، المشتمل على النبيا  
المعظيم ، من دخوله في الدين وخروجه عن خالف من المشيرة والاقربين ، ولما  
فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمعلم المعلم ، والحديث الذي صحح عن  
أهل الاسلام اسلامه ، واصل الحديث ما روى عن مسلم ، وتوجهت الوجوه الى  
الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حَبَّ حَبِّ  
هذا الدين في قلبه ، كما أنبت احسن النبت من اخشن المنابت ، وحصل

التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول الصبر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ودخوله في الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية ، فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألهمه شريف هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام ، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد ، وجهاد تنزل دونه الأقدام . . . " (١) .

عندما ندقق النظر في هذا الجزء من مقدمة رسالة ابن عبد الظاهر نبتين بوضوح أسلوب الرسائل في هذا العصر وخصائصها وطابعها العام ، فنلاحظ في الديباجة أنها تبدأ بالبسطة ثم ذكر اسم المرسل والمرسل إليه مع القاب - التعظيم ، ثم حمد الله والصلاة على نبيه ، وعرض بعض المنن التي من الله بها على عباده ، والتلميح لموضوع الرسالة من خلال ذلك ، ونحوها بالابتهاج والحذر معا من خلال عبارات الرسالة لإسلام غازان والخوف من أن يكون إسلامه خديعة أو دسيسة .

ونلاحظ التلاعب بالالفاظ على طريقة كتاب العصر ، فنجد الجناس والطباق ، والتورية والسجع والاقتياس ، في مثل قوله :

" وَأَنْ يَنْبِتَ حَبَّ حَبِّ هَذَا الدِّينِ فِي قَلْبِهِ " وقوله :  
" وَصَلَ الكِتَابَ الكَرِيمَ ، المَتَلَقِي بِالتَّكْرِيمِ ، المُمْتَلِ عَلَى النُّبِيِّ العَظِيمِ " .

وهذه الملاحظات تدل على غرام كتاب هذا العصر بالمحسنات والجرى وراة زخرف اللفظ والمصنى .

والرسائل الاخوانية لها نفس هذه السمات ، فهي تعتمد الى السجع ،  
والاقتباس ، والتورية ، والجناس ، وقد تتضمن بعض الامثال القديمة والابيات -  
الشعرية ، هذا من ناحية الشكل أما المضمون فهو متنوع ومتعدد ، فتارة تعبر  
الرسالة الاخوانية عن ود قديم وحنين الى الايام السالفة ، وتارة تعبر عن شكوى  
والم ما هو فيه من ضيق وبؤس ، وأخرى تعبر عن فرحة وتهنئة بمنصب أو مكسب  
سر الصديق وأحزن العدو ، الى غير ذلك من الاغراض والمضامين المتعددة .

وقد تجمع الرسالة الاخوانية الواحدة بين عديد من هذه المضامين .

وإذا كانت هناك سمة مميزة للرسائل الاخوانية ، فهي التعبير عن  
العواطف الشخصية والاحاسيس الفردية ، مع البالغة في النعوت والوصاف  
والالقب ، تعظيما وتقليلا الى درجة ينكرها الذوق وينفر عنها الطبع .

وبالمثال يتضح صحة ما قلنا ، فلنمثل لذلك برسالة لشرف الدين  
بن حجاج العالية كتبها الى الوزير الكاتب فخر الدين بن مكناس يطلب شاشا ،  
قال :

” يقبل الارض التي شاق ترابها المواطى ، الفخرية ، فزاد اعجابا ،  
وقال المسلك ياليتنى كنت ترابا ، وينهى أنه أقبل على المطالعة ، والباتسى  
من المشر الى ليال خمس ، واستهدى بنجوم فوائدها حين قامت الشمعة  
بوظيفة الشمس ، واستدعى اعوانا من السهر ، فتخاذلت عنه أعوانه ، وخشى من  
غلبة النوم فتغلب عليه سلطانه ، ولما أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة  
بلسانها وتناولت طرف شاشة بين نيرانها ، فهب الملوك وأخذ منها ما تصاعد  
من الانفاس ، وقابلها على حرق الشاس يقطع الرأس .

انى جلست بشمعة موقودة

لاطالع الاسفار للتسييح

فتاوت شامى أرائل نارها  
وتمكنت منه بصر المسيح  
من قبل حرق الشام كت مطالما  
فى الكتب صرت مطالما فى الروح

وقد توسلت بهذه الرسالة المدونة فى باب المنظوم والمنثور ، ومددت  
يد سؤلى الى طلبى شامى مقصورا ، وأرجو أن يجمع لى بين المدود والمتصور .  
أبقاك الله للاولياء الذين يحبون وجودك ويستمتطرون كرمك وجودك (1)  
ومع أن موضوع الرسالة طلب شامى لخطامته التى التهمت بها السنة الشمسة الممتدة  
حين غلبه النوم الا أنه انتهز هذه الفرصة واسترسل فى الوصف والسجى  
والاستطراد وضمن رسالته ابياتا من الشعره كل هذا جريا على طريقة الرسائل  
الاخوانية التى ترن بهذا الميزان وتكيل بهذا المكيال .

لذا كانت هذه الرسالة تصبيرا عن عواطف شخصيته ، وحاجات نفسية ،  
وهذه احدى سمات الرسائل الاخوانية ، ومن سمات الرسائل الاخوانية فيها  
أيضا عبارات التواضع المبالغ فيها ، مثل - فهب المملوك - يعنى نفسه ،  
ومنها عبارات التفضيم والتعظيم المبالغ فيه كسابقة مثل :

أبقاك الله للاولياء الذين يحبون وجودك ، ويستمتطرون كرمك  
وجودك \* - يعنى بذلك مدوحه - .

وكل هذه السمات والذواهر فى الرسائل الاخوانية نجدها بوضوح فى  
الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين الصفدى وأبى الفتح مهن سيد النمام ،  
وسنتعرض لذلك بالتفصيل بعد قليل .

ولاكتمال الصورة نأني بمثال للرسائل الوصفية فمثل لها بما كتبه  
ابن دقيق العيد في متاعب العلم والتحصيل والتأليف ، قال ابن دقيق  
العيد :

” ..... فإن المرء يتعب أفكاره ، ويكد ليله ونهاره ، ويقودح  
زناد القريحة حتى يرى قرحة ، ويرقب فجر الحقائق حتى يتبلج صبحه ،  
ويروض مصاعب النظر حتى يسهل جامحها ، ويستدنى شوارد الفكر حتى يقرب  
نازحها ، فإذا تجلى له من ذلك نادرة ابدائها ، وتأمل أن يودع بالفكر  
خاتمتها ويتلقى بالشكر مبدائها ، قام الحاسد فقيح تلك الصورة الحسنة  
وشانها ، وحقر تلك الحملة الجميلة وشأنها ، وقال بلسان الحال والمقال :  
لقد دلاك أيها المصنف الغرور واستهواك الغرور ، وغاب الغنا وحضر الانا ،  
وطاش السهم ، وطاح الفهم ، فالروض هشيم والمرتع وخيم ..... ” (١) .

هذا الجزء من الرسالة الوصفية هذه لابن دقيق العيد يدل على  
أسلوب الرسائل الوصفية والنهج السائرة عليه والسمات التي تتمتع بها .

ومع أن ابن دقيق العيد ليس من كتاب الانشاء في ذلك العصر  
الا أنه أديب ، شاعر ، عالم فقيه ، وهو في هذه القطعة الوصفية يجنح الى  
طريقة كتاب العصر ، فيعمد الى استخدام البديع لكنه لا يسرف فيه ، وأسلوبه  
يتمتع بالرصانة التي يفقدها كثير من كتاب الانشاء في عصره ، ونجد من سمات  
العصر في هذه القطعة النثرية - الجناس ، والمقابلات اللفظية ، والكلمات  
المسجوعة ، ولا نجد في ذلك تكلف ولا صنعة كما نجده عند كتاب العصر  
المحترفين للكتابة والانشاء في دواوين الملوك والسلاطين ، وقد تأثر ابو الفتح

(١) طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٤ .

ابن سيد الناس بهذه الطريقة في رسائله النثرية ، لأن ابن دقيق العيد هو استاذ الذي احتداه واقتفى اثره في كثير من الاتجاهات العلمية والادبية ، وسنرى ذلك واضحاً في نشر ابن سيد الناس .

وللنشر في هذا العصر الذي نتحدث عنه موضوعات غير هذه الموضوعات التي ذكرناها \_ فقد كانت هناك الخطب والمواعظ الدينية وغيرها مما لا يسع المجال هنا لذكره والتثيل له .

بقي أن نقول :

في هذا العصر عاش ابن سيد الناس ونهل من مناهل الشعر والنثر وتأثر بأدبائه وقرنه نظماً ، ونثراً ، شكلاً ومضموناً ، وأدلى بدلوه فقال الشعر الرائق ، والنثر الفائق .

وبهذه التوطئة ندخل على دراسة نشره وخصائصه \_ المطبوع منه والمخطوط .



:: الفصل الثاني ::

~~~~~

نشره وخصائصه

١ - نشره المطبوع :

في أثناء دراستي لحياة العالم الجليل ابن سيد الناس وجدت له بعض المقطوعات النثرية مفرقة في ثنايا تراجم بعض الشخصيات التي عايرهما وتأثر بها وحدث عنها .

من هذه المقطوعات النثرية المقطوعة التي استشهد بها صاحب طبقات الشافعية الكبرى - السبكي - عند الحديث عن ابن دقيق العيد وأديبه ، قال :

" قال أبو الفتح بن سيد الناس اليمصري الحافظ : لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت عن أجل منه فيما رأيت ورويت ، وكان للعلوم جامعاً ، وفي فنونها بارعاً ، مقدماً في معرفة علل الحديث على اقترانه ، متفرداً بهذا الفن النفيس في زمانه ، بصيراً بذلك ، شديد النظر في تلك المسالك ، لا يشق له غبار ولا يجري معه سواه في مضمار .

إذا قال لم يترك مقالا لقائل

مصيب ولم يثن اللسان على هجر

وكان حسن الاستباط للاحكام والمعاني من السنة والكتاب ، يلب يسحب الالباب ، وفكر يستفتح له على غيره من الابواب ، مستعينا على ذلك بما رواه من العلوم ، مستبينا ما هنالك بما حواه من مدارك المفهوم ، مبرزاً فنى العلوم النقلية والعقلية ، والمسالك الاثرية والمدارك النظرية .

وكان من العلوم بحيث يقضى
له من كل فن بالجميع

وسمح بمصر والشام والحجاز ، على تحرف في ذلك واحتراز ، ولم يزل
حافظا للسانه ، متقبلا على شأنه ، وقف نفسه على العلوم وقصرها ، ولو شاء
المعاد أن يحصر كلماته لحصرها ، ومع ذلك فله بالتجريد تخلق هو بكرامات
الصالحين تحقق ، وله مع ذلك في الادب باع وساع ، وكرم طباع ، ولم يخل
في بعضها من حسن انطباع ، حتى لقد كان الشهاب محمود الكاتب ، في تلك
المذاهب يقول :

لم تر عيني آدب منه • انتهى (١)

الناظر في هذه القطعة النثرية يرى أنها من نثر العلماء ، وموضوعها
اثبات علم ابن دقيق العيد وأدبه على لسان تلميذه ابن سيد الناس ، يجد
فيها صورة أدبية للنثر وخصائمه في ذلك العصر ، ومن أبرز هذه الخصائص
والسمات :

١ - السجع ، والمزاوجة اللفظية في الفقرات والكلمات في مثل قوله :
" لا يشق له غبار ، ولا يجري معه سواه في مضماره وكان للعلوم
جامعا ، وفي فنونها بارعا ، ولم يزل حافظا للسانه مقبلا على شأنه ،
..... "

٢ - ترادف الصبارات والمبالغة في الوصف في مثل قوله :
" لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت عن أجل منه فيما رأيت ورويت . "

وفي قوله :

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٩ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ الطبعة الأولى .

* بلب يسحر الالباب ، وفكر يستفتح له على غيره من الابواب *

٣ - ومن سمات العصر ايضا الاتيان بأبيات من الشعر في أثناء النشر لتقوية الفكرة واثباتها في نفوس السامعين *

٤ - ومن الخصائص والسمات في القطعة تقارب المبارات في الحروف مما يجعل التجانس والمقابلة واضحا بينها في مثل قوله :

* ومع ذلك فله بالتجريد تخلق ، وبكرامات الصالحين تحقق * *

وعموما نرى روح العصر في الشكل والمضمون متمثلا في هذه القطعة الوصفية النثرية *

ونجد قطعة نثرية أخرى لابن سيد الناس أوردها صاحب * الذيل على طبقات الخنابلة * في ترجمة ابن تيمية الحراني قال :

قال الذهبي : ذكره ابو الفتح اليمصري الحافظ فقال : * الفيتة من أدرك من العلوم حظا ، وكان يستوعب السنن والآثار حفظا ، ان تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، وان افتى في الفقه فهو مدرك ظيته ، أو ذاكرا في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالليل والنحل لم يسر أوصح من نحلته ، ولا أرفع من درايته ، بيز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم ترعين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه * (١)

وهذه التلمحة النثرية كسابقتها نجد فيها ملامح نشر العصر الوصفي

(١) الذيل على طبقات الخنابلة لابن رجب * ج ١ مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م *

في الاسلوب والمعاني من هذه الملاح الالفاظ المسجوعة مثل :

الفتية بمن أدرك من المعلوم حظا ، وكان يستوعب السنن والآثار

• حفظا

والبالغة في الاوصاف والنعوت مثل قوله :

" ان تكلم في الحديث فهو حامل رأيه هو ان أفتى في الفقه فهو

مدرك غايته " •

وقوله :

" لم ترعين من رآه مثله ، ولا رأته عينه مثل نفسه " •

وإذا كانت هذه المقطوعات النثرية لا بن سيد الناس جـسرت

على طريقة العصر من حيث اللفظ والمعنى ، فهي لا تخلو من المميزات

الخاصة بها •

ومن هذه المميزات :

١ - السهولة وعدم التكلف في ربط الجمل بعضها ببعض مع جمال

الوصف •

٢ - رقة الابيات الشعرية وجودتها وحسن وقعها في النفس ووقعها

في موقعها •

٣ - السجع والالفاظ المتطابقة جاء نابعا من طبيعة متفوتة موهوبة مسا

جعل النفس تقبله ، والسجع لا ينبوعنه •

ب - نشرة المخطوط :

تطالعنا في نشر ابن سيد الناس المخطوط الرسائل الاخوانية المطولة التي تبادلها مع صديقه الصفدي (١) في مخطوطة الحان السواجع (٢) المصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

وتسجيلا لهذا الجانب وحتى يمكنى القاء الضوء على هذه الرسائل التي تحتوى على نشر مسجوع يتخلله نظم ، تمت بتصوير هذه الرسائل المتبادلة بين الصفدي وابن سيد الناس مما لا ارتباط بعضها ببعض ، فهى امسا بداية مخاطبة وبث شكوى ، أو رد على ذلك .

ولطول هذه الرسائل سوف اختصر ولا أورد الرسالة بكاملها ، بسأل أجيء باجزاء منها وأجزاء من الرد عليها ، وابين ما فى هذه الرسائل الاخوانية من خصائص ومميزات العصر .

* * *

(١) هو خليل بن أيبك ، ولد بصفد سنة ٦٦٢ هـ وتعماني أول حياته صناعة الرسم فبيع فيها ثم حبيب اليه الادب فولج به ، واتيحت له الرحلة مرات بين الشام ومصر وظل بمصر حتى سنة ٧٣٢ هـ وتقلد مناصب عدة كان آخرها وكالة بيت المال بدمشق ، وظل بها حتى وفاته .
شرح اللامية ٢/٢٦٨ - .

(٢) الحان السواجع بين البادى والمراجع ، كتاب للصفدي مخطوط ومصوره بمعهد المخطوطات تحت رقم ٥٤ أد ب .

وكنز هو الوقر مر حدى اهداه

يا جماعة الخلق والجود والفضل وشع الوجود وكل من
قد تحاسن شرف الجود فاصفح بالنعمة واستر حياك حبيبي

اكتكت انا الحواج بالية

حاشا لله ان يرمى منك حبيبي ومما ليك قد حوت كل حسن
وعزم الاقوام فهو شجاع والخيال الذي تزدى بحسين

محمد بن محمد بن محمد بن احمد بن يحيى الشيخ الامام الحافظ
الرحلة المحدث الاديب الكامل الناظم الناشر فتح الدير ابو
الفتح او الشيخ الامام المفكر ابو عمرو ابو الامام العلامة
افضل ابن سيد الناس البصري كتب لنا ليد من دمشق الموصوف

كان سمى بالشيخ فتح الدين يحيى الاديب وهو شهيد
تألف في يد ما هو مستوف اعوزت في الفوائد الفقيه

يقال الارض ونهر يود وصف شوقه وقلة الذي شام منه
عمر طاقه وشبه عمر عن طوقه ودموع التي حلو فانها تحت
ناطح ومن فوقه وفكر التي بدت ذهنه فعدم ما كان اكسبه
مصر من خلاق ذوقه وخالقها شاهدان كنه في الود كمن ينفعه
وبدركت التي تشهد بها البرزود ومع العمارة ولاية الذي تحب
يد في العصور الحاضرة وثناء الذي تكلم الاسم تدليه وشوق الود كمن
انه فارغ من روى نافع من الحزن وقد ذكرا لانهما حنين

١ - الرسالة الاولى

قال الصفدي :

* كتبت أنا اليه من دمشق المحروسة سنة ٧٣٩ هـ كان سمى
بالشيخ فتح الدين يحيى الآداب وهى شهية • مالها عهد بأرض دمشق
أعزنى الفواكه الفتحية •

يقبل الارض وينهى بعد وصف شوقه • وقلقه الذى شاب منه عسر
طاقته وشب عجزه | عن طوقه • ودموعه التى جاء طوفانها من تحت ناظره ومسن
فوقه • وفكره التى بلدت ذهنه فعدم ما كان اكتبه بمصر من حلاوة ذوقه •

وحالتى انت بها شاهد ان كت فى الود كما ينبغى • ويذكر محبته
التى شهد بها البحرى ودموع الحمامة •

ولاء الذى تسجع به فى الفصون الحمامة • وشاه الذى كالنسيم
ذيله ونشق الزهر كمامه • وانه فارق مصر ومولانا فعدم البحرين وفارق
ذلك النضا وحنوه •

بسم الله اياما تقضت بقربكم

وحيا محلا كتم فيه جبرتنى

ولا شكر الرحمن ايام بيننا

فليس سوا* والتى قيلت ولت منه*

قال الصفدي :

فكتب هو (يعنى ابن سيد الناس) الجواب عن ذلك :

أليك صلاح الدين أشكو صبايتي

وارفع فيما رايتي منك قصتي

أقول بأن القلب مثواك دائما

وأشكو اليك الشوق في كل لحظة

وأشكر أياما تقضت بفريقكم

وجل لها شكري وان هي جلت

يقبل كذا وينهى ورود المسرف فأكرم به واردا • واعهد به على وانفا •
يجلو على الأبصار ما شاء من عين • ويجلى عن البصائر ما شاء من عين • حائزا
من نظمه ونثره ربح الصناعتين فائزا من سحر بيانه ودر بنانه بامد الشرفين •
والسبق في الطرفين • والاستيلاء على الامدين • والاستعلاء على الصدفيين •
فقد المملوك ليد راحته • واستند منه راحته • بعد ما وجد من فراق من به
وجد • وقد اشتم بقلبه من نار الخليل لفقد الخليل ما وقد • فراح كليهما امتياق
في الهم احتراق • ينادى بلسان الاشواق :

لقد لسعت حية النوى كيدي

ولا طبيب لها ولا راقى

فوافته وقد شطت به الدار • وتناهى عنه المزار تحية باها بها الصبا • وباهت
بحسنها شمع الضحى • وعرفها زهر الربا • فقال يا بشر ابي بعد ها الونى •
وجمالها الموسيقى • أصدرت عن بشر أم ملك • أم عن ملك البلاغة الذى ملك •
من در القول ما ملك • وترك لغيره من مخطبه ما ترك • أما فقد حرسه الله
بدمشق الفواكه الفتحة • فقد وقف المملوك على ما تضمنته تلك التحية •
وهزت منه عطفًا لتلك الريحية • وانما يجتنى كما قال المقر الشهابى حرسه
الله من غرس بدا صلاحه وروض فلاحه • وتفتح زهره فراق اختتامه بالمسك
وافتاحه •

الملوك يلتمس التشريف بخدمته ومراسمه ومهامه ، والله يحرسه فسي
حركته وسكاته ، ان شاء الله تعالى .

خصائص ومميزات الرسائل الاخوانية :

بمقارنة بسيطة بين الرسائل الاخوانية وغيرها من الرسائل الديوانية
والوصفية تميز لنا نقاط خلاف ونقاط التقاء في الشكل والمضمون تميز كل نوع عن
الآخر وتختص به ، ومن مميزات الرسائل الاخوانية الواضحة :

١ - الموضوع :

فغالبا يكون موضوع الرسالة الاخوانية عتابا ، أو شكوى ، أو شوقا
وحنينا الى الماضي ، أو تبادل رأي ، أو مفاكحة ، أو تهنئة ، أو تعزية
وما الى ذلك .

٢ - الاسلوب :

تتم الرسائل الاخوانية بالاسراف في عبارات المجاملة ، والمبالغة
في نعوت التعظيم للمرسل اليه ، ويقابل هذا في الجانب الآخر
الاغراق في الفاظ وأوصاف التواضع التي يقتضها الراسل وضييفها
الى نفسه .

٣ - ومن المظاهر التي تلتقي فيها كل أنواع الرسائل في عصر ابن سيده
الناس استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية .

وهذا يظهر فيما نجد في نشر العصر بوجه عام من جناس ، وتورية ،
واقتباس ، وتتميم ، ومقابلات ، وتشبيهات ، واستعارات ، وغيرها ، وتختلف

هذه الاشياء حسنا وتبحا من موضوع لآخر ، ومن كاتب لكاتب •

وبوتفة مع هاتين الرسالتين نلاحظ :

١ - الاسلوب :

تبرز فيه من سمات العصر - السجع ، والجناس ، والتورية ، والمبالغة
تمظيما وتقليلا ، وتشتمل الرسالتان على أبيات الشعر الرقيقة التي
تاسب المقام •

من ذلك قول ابن سيد الناس في رسالته :

اليك صلاح الدين أشكو صبايشي

وأرفع فيما راينى منك قصصتى

أقول بأن القلب مثواك دائما

وأشكو اليك الشوق فى كل لحظة

ومن أمثلة السجع فى الرسالة أقوله :

فاكرم به واردا ، واعهد به على واقدا ، وكثير مثل هذه العبارات -

المسجوعة فى الرسالتين •

ومن امثلة الجناس فى رسالة ابن سيد الناس :

زين عو - زين ، و - ليد راحته ، و - استمد منه راحته ، و -

ما وجد من به وجد •

والمبالغة فى التمظيم والتواضع نجدها فى عباراته :

وقد اضرم بقلبه من نار الخليل لفقده الخليل ما وقد ، فراح كليـم

اشتياق ، فى السهم احتراق ، ينادى بلسان الاشواق •

ونجد عبارة التواضع التي لم تخل منها رسالة من رسالاته وهي :
" والملوك يلتمس التشريف بخدمته ، ومواسمه ومهماتهم . "

وإذا كان لنا تعليق على هذه الأشياء فأننا نقول قد يمل القارىء
هذه التعبيرات ، ويهيق بهذه العبارات ، ومواميها الآن ، لكن
حسبه أن يدرك أن هذا اللون من التعبير كان يعجب أهله فسي
عصرهم ، لانهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم كما هي الحال الآن ،
وكانوا يتذوقونه وتسرى النشوة لسماعه في أوصالهم عند استرجاعه
أو انشائه ، ولا ننكر أنه تراثنا وميراثنا ولا جديد بلا قديم .

٢ - الرسالة الثانية

قال الصفدي :

• وكتبت أنا الجواب اليه :

أهلا بها من تحية صدرت

عن راحة بالفنائل اشتهرت

ياحسن ما صدرت أنا ملها

ولطف ما نظمت وما نشرت •••

يقبل الارض التي مجالس العلم بها مشهودة ، وبركاتها مشهورة ،

وكتب السنة الشريفة منصومة وكتائبها منصورة ، ونفائس الآداب بها مسرورة

ونفوس أهلها مسرورة •

فهي أرض تظاول الأفق فخرا

اذ عليها صحك دون البقاع

والقدم التي خلت يناد يسهى اليها المنبر - ويوطئها قدرها العلى خلد

من فسد ومن بر • ويمسح اخمصها اذا سعت في المعالي عن برغبر •

قدم تستقل نعل الثريا

مذ ترقبت في ساعيات المساعي

واليد التي لو ارادت لنالت الكواكب • وأخجلت بوجودها الفيوث الهوامع •

والسحب السواكب • وحملت رايات فخارها التي تزدحم تحت ظلها في السيادة

مناكب الكواكب •

راحة تشرف الثقة اذا ما

قبلتها للفنيل بالاجماع

تقبيل محب ظفر بوصول حبيبته فهو يقبل القبلة بالقبلة ويشفع النملة بالعلسة •
ويشمر على وفائه الذي يراه على طول المدى خير صاحب ، ويحافظ على وفائه
الذي به يعرف العشاق عند الحباب ، وصف أشواقه التي لا يعلم ، قرارها
الا الذي أوجبها وقررها ، ولا يدري قدرها الا الذي حكم بها وقدرها •
ولا يعرف المها الا القلب الذي لمها ، ولا يجبر ضميمها الا الفؤاد الذي ضمها
فهي الاشواق التي استعارت الجحيم استعارها • ونفت عن الجفون
قرتها وعن الجوارح قرارها • واعدت النفس في الصباح صلاحها وفي المساء
مساها فاما على الديار المصرية وأوقاتها • وسقيا لمحايد أنسها لنفسها ولذاتها
لذاتها ، ورعا لتلك المنازل التي لاتخرج الأعمار عن هالاتها ، وحفظا لتلك
الوجوه التي للمشمس أضواء على جنباتها • وشكرا لتلك النفوس التي المجد يعليها
على علاتها •

ذكر الانام لنا فكان تصيدة

كنت البديع الفرد من أبياتها

والرسالة طيلة اكتفينا منها بهذا القدر ، لنورد قدرا مناسبا من رسالة الرد

عليها لابن سيد الناس •

قال الصفدي :

” فكتب هو (يعني ابن سيد الناس) الرد عن ذلك :

حيث فأحييت فعندما حسرت

خمارها كل مهجة سحرت

يا خجلت الشمس عندما سحرت

وغصمة الفصن كلما خطرت

يقبل اليد الغالية الصلاحية لازالت صالحة الشيم سافحة الديم • بل الباسطة

الكريمة لا برحت واسطة عقد الكريم • بل الارض المنبسطة بحلولة لا فتيت

مواطني النعم * ومواطني اولي الهمم *

تقبيل ملآن الحضان

ببوده دون الأُمم

متندم لفراقه لو كا

ن ينفضه الندم

يشتاق من بلقائه

ولو أنه طيف الم

لو كان يطرقه الـ

كسرى لكانه لما يـ

لهفى على عسريه

ولو حيدا لم يـ

شوقى له شوق العلي

ل لما شفاه من السقم

شكرى له شكر الريا

ض السحب جادت بالديم

ذكسرى الايام به

سرت كما مر الحلم

وينهى ورود المشرفة العالية قدرا * الحائزه من الروائع دراهم *
المونقة في رياض الفصاحة زهراً * المطلعة في سماء البلاغة زهراً * وكلف بها
كلف عمرو بمرارة * والفرزدق بنوارة * واقسم من طرفها بحمرة الشفق *
ومن بنفسها بالليل وما وسقاه ومن غير معانيها السامية على غير معانيها
بالقمر اذا اتسق * لو تليت على اهل البلاغة فظلت اعناقهم لها خاضعين *

وحلت على أرباب اليراعة وألباء البراعة فقالتا أتينا طائعين •

وأين حيمه من سميها • أم أين سهيلة من ثراها • لشد ما ارتفعت
منها المطالع • وانقطعت دونها المطامع • فما الظن بوحيد يحتاج الى الذمام •
ويربط في الرغام • لا عهد له بالتغيير في البرايا • ولا أمن له بالدخول في
القتام • أن يجول في حلبة الرهان • أو يطول الى مقاتل الفرسان • أو يسابق
سكيتيه مجلى المبدان • أو يناطق بباطل من سحب ذيلا على سحبان •
وهل تستفاد تلك المواد من غير ذلك المواد • ولن يكثر البحار الزواجر من
ورده الثماد • ولن يطاول الانجم الزواجر من قرارته الوهاد • فما يفوه السليم
الصدق الا بالتسليم لذلك السبق • والتعظيم لذلك الحق • اعترافا بما حواه
رافع ذلك المنار • وجامع تلك المبار • وأما أمره بالسارعة الى المراجعة •
والمماثلة الى المساجلة • وما غادر لغيره من مترد • ولا شن على الآداب
غارة ربيعة بن مكدم • فلم يرجع المملوك الى جواب ينجده • وخطاب يسعفه
بالمراء ويسعده • الا التمثيل بقول القائل :

وأخذت أطراف الكلام ظم تدع

قولا يقال ولا بديعا يدعى

وأما تمثيله ببيت أبي العلاء مع ما هو فيه من علو المكان • وإثباته
بزعمه الحصى على المرجان • فما يكثر بالادب • وعيون تصل اليه من حديد
الا المكاثريناى انسان • بل لعله حرسه الله تعالى عن له المرور ببلاد ابن
غير • بلاد بها الحصى در • أو ثنا عنانه الى منزل ابن اللبانة :

نزلنا فكافور وتبر وجوه

يقال لها الحصى والروبل والسترب

نكتفى بهذا القدر من رسالة الرد لنبدى بعض الملاحظات :

١ — من ناظرة القول أن نقول أن الرسالتين اشتملتا على قدر كبير من عبارات المسجوعة ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، والذي يمكن أن نضيفه أن هذه الأشياء جاءت بلا تكلف ولا معاناة مما جعلها حلية في عنق المعنى فلم تفسد جماله وتسلسله .

٢ — وافق ابن سيد الناس في رده بين لفظه وموضوع رسالته ، فهو يسرد على صديق حميم ، وأديب مكين ، فوجد من الموافق استخدام الناظ الرقة ، والعلم ، والأدب .

ومراعاة التناسب بين الموضوع واللفظ من سمات فنون القول عامة في ذلك العصر .

٣ — نرى كثرة الاقتباس في رسالة ابن سيد الناس من القرآن الكريم — كما نرى التضمين لكلام السابقين والتمثل بأشعارهم التي تناسب مقام القول في رسالته .

والاقتباس من القرآن الكريم نراه في قوله :
واتسم من طرفها بحمرة الشفق عومن نفسها بالليل وما وسقت ، ومن
غرد معانيها السامية على غير معانيها بالقمر اذا اتسق .
وتضمين كلام القدماء ، نجد في قوله :
وما غادر لغيره من متردم ، فهو تضمين لشطر بيت الشعر القديم :
هل غادر الشعراء من متردم ؟
أما تمثله في كلمة المنثور بأشعار القدماء فهو كثير في رسالته ، منه قوله :

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع

قولا يقال ولا بديعا يدعى

٣ - الرسالة الثالثة

في هذه المرة نهتدي برسالة لابن سيد الناس ، وان كانت هسي
ردا على رسالة في سلسلة الرسائل المتبادلة بينهما ، الا أن الصفدي رد
عليها ، مما جعلنا ننظر اليها كأنها رسالة بدء لا رد .

قال الصفدي :

* فكتب هو (يعني ابن سيد الناس) الى :
* وردت المشقة السامية بحلاها ، الزاهية بحلاها ، المشتعلة
على الابيات الأبيات ، الصادرة عن العجائب العجيبات ، التي فاقت
الكنديين وطوت ذكر الطائيين * ماشئت من بدائع ابداع * وروائع ابداع *
تقف الفصاحة عندها * وتقفوا البلاغة جدها * فله ذلك الفضل الوافي *
بل ذلك السحر الحلال الشافي * بل تلك القوى في القوافي * بل تلك
المقاصد التي اتصت المعنى في المناهي * بل تلك المعاني التي حيرت
المعاني * وفعلت في الالباب ما تفعله المثال والمثاني * بل تلك
الاضاع التي جلل الريح وشيها * وامثل القلم أمرها ونبيها * فهو يصرفها
كيف يشاء * مرسوما * تفرمه أنها لا تخالف له مرسوما * لقد آل فصل
الخطاب اليها * والى فضل الخطاب لا وقف الشرف الا بين يديها *
لقد صدرت عن رياض الادب فجنث زهره اليانح * ولقد أخذت بأفاق
سما الشرف فلها قمرها والنجوم الطوالح *

وأورد ابياتا من الشعر منها :

ومالى الا أنة بعد أنة

ومالى الا زفرة ونحيب

رضينا لهد غادر القلب رهبة
وعلم دمع العين كيف يصوب
وذكر خليل لم يغب غير شخصه
وفى كل قلب من هواه نصيب

فياد رها المملوك لبيانها معترفا • وبارجها متعرفا • وبولائها متمسكا •
شوقا اليها لا يبدي ، ولو عمر عمر لبيد ، واقفا على آمال اللقا وتوف غيلان
بدارمية • عاكفا على ارجاء الرجا عكوف توبة على حب الاخيلية • واللله
يتولاه في حالتيه ظاعنا ومقيما • ويجعل السعد له حيث حل خدينا
والنجم خديما • بينه وكرمه •

قال الصندي :

* فكتبت أنا الجواب اليه عن ذلك :

توح حمامات اللوى فأجيب

ويخضر عندي عائد فأغيب

وقد سل فرش السقم طول تعلقى

عليه بجنبى حين تهب جنوب

ولما بكى عيني نواك تعلمت

دموع السحاب الفركيف تصوب

يقبل الاض وينهى ورود المثال الذى تصدق به مولانا نمنعا • وأهداه
جميله فكم شفى زهرها النعم من عى • ويمت قلاده فكم أزال درها المنظم
من ظما • وأقام حجة على أن مرسله يكون فى الاحسان والآداب مالكا
ومتصفا • فيلات بسروقه غلة الظما البرج • وعانيت ما شاده من بنيان
البيان فقالت ليلتين ادهلى الصبح • وتمت من حقوقه الواجبة على ما يحلول

فيه الشرح * وتلقيته بالضم الى قلب لا يجبر منه الكسر غير الفتح *

الى ان قال :

" ظو رأى الميكالى نطه العالى * وتسم شذا غايته المزيز
الغالى * لقال عطلت هذه المحاسن حالى * وكنت من قبلها ما أظن اللالى
الالى * ولو ظفر الخطيرى بتلك الدر حلى بها تصنيفه * وعلم أن أرساب
الجناس لو أنفق احدهم من الكلام ملء الارض ذهباً ما بلغ مد مولانسا
ولا نصيفه * * * * *

لنقف عند هذا الحد لنبدى بعض الملاحظات ونضع ايدينا على

بعض الخصائص :

١ - تختلف رسالة ابن سيد الناس هذه المرة فى الاسلوب عن رسائله
السابقة ، فقد اكثر فيها من التشبيهات وأسماء الاشارة حتى أننى
عددت - ذلك ، وتلك ، والتي ، فى هذه القطعة النثرية
فوجدتها كررت عشر مرات ، وقد يبرر ظاهرة التكرار هذه أنه كان
مسترسلاً فى الوصف لرسالة سابقة من رسائل صديقه الصفيى
واستشعاره لها جعله يكثر من الاشارات اليها *

٢ - ويبدو فى رسالة ابن سيد الناس هذه المرة واضحاً قصر الفقرات
المسجوعة ، وخفتها وتضمنها للمعاني القديمة * مثل :
شوقا اليها لا يببىد ، ولو عمر عمر لبيبىد *
واقفا على آمال اللقا وقوف غيلان بدارميبىة *
عاكفا على آسالى الرجى عكوف توبىة على حب الاخيلية *

٣ - ونجد اللفظ والمعنى يتطابقان مطابقة تامة فى التعبير عن عاطفة

الشوق والمحبة في هذا البيت :

رضينا لمهد غادر القلب رهبة

وعلم دمع العين كيف يصوب

يقابله قول الصفدى :

ولما بكت عيني نواك تعلمت

دموع السحاب الغر كيف تصوب

* * * *

٤ — الرسالة الرابعة

قال الصفدي :

” وكنت كتبت اليه في سنة ٧٣٨ هـ استدعاءً اجازة وهو بعد حمد
الله والصلاة •

المستول من احسان سيدنا الشيخ الامام العالم العلامة الحافظ
رحلة المحدثين • قبله المتأدبين • حافظ السنة حفظاً لا ترى معه أن يعمل
الناس الا سنة • مركز الدار من أهل الرضى • فألى ما قد حوى ثنى الاغنة •
بديع زمانه • ونادرة أوانه • ضابط الانساب على اختلافها • ناقل العلم
الشريف عن سلفه الذي واقف على المراد وشرطه • صاحب ذيل الفخر الذي
لو بلغ السماني جعله في الحليه قرطه • وصاحب الفصل الذي اذا أتى
رأيت البحر بأواجه منه تلتطم • والعبارة تستيق في مضمار لهواته فتزداد
وتزدحم • الذي ان ترسل نقصت عنده الفاظ الفاضل • وعجز عن مفاوضته
ومعارضته فيما زعم • وتخطى بما يبديه فرق الفرقدين وتوضى النجوم بما حكم •
فهو الذي تظهر أقالمه الى اقتصاص شوارد المعاني • فتكون من أنامله
أولى أجنحة مثني وثلاث • وتبعث فكرته في خدمة السنة البنوية وما يكبره
الله هذا الانبعاث • وتبهر مخبات المعاني بنظمه ومن السحر اظهار
الخبايا • وتعقد الالسن عن معارضته وعقد السحر لا تكون بخير السحر فسى
البرايا • وتستنزل كواكب الفصاحة من سماءها بخير رصد •

وأتمنى بالفاظها العذبة • نورها

للشمس وفحولتها للاسد • وسجل من شرف سيادته بيتاً عموده الصبيح
وطينته المجرة • ويتوقل هضبات الفصاحة ويستجس حشا الحاريب ويطأ
بطون الاسرة • فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس •

إجازة كاتب هذه الاحرف جميع ما رواه من أنواع العلوم وما حمله من تفسير لكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأثر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين • ومن بعدهم الى عصرنا هذا بسماع من شيوخه • أو بقرأة من لفظه أو بسماع قرأة غيره •

واجازة ماله من مقول نظما او نثرا أو تأليفا • وجمعا في سائر العلوم • فان الرياض لا ينقطع زهرها • والبحار لا ينفد درها • • • • •

قال الصفدى :

” فكتب هو (يعنى ابن سيد الناس) الجواب رحمه الله •

بعد حمد الله المجيب من دعاه • القريب من نادى نساءه الذى ابتعث محمدا بانواره الساطعة وهداه وايده بالذين حموا حساه • ونصروه على من عاداه • • • • •

فلما كتبت الى ايها الصدر الذى يشرح الصدر شفاه • والبدر الذى يبهر البدر سناه • • والحبر الذى غدا في التماس ازهار الاداب راغبا • ولاقتباس أنوار العلم طالبا • • فحصل على اقتناء فرائدها • واقتناص شواردها وألقى عقله عقال أوابدها • ومحال مصايدها • ومظان مطاردها • بما أودعه الالمية من المحانى المبتدعها ذهنه • واستعادة على لسان قلمه وقد ألبيسته الفصاحة ما ألبيسته من حسن تلك الفطنة • • • • • فلا آداب حرسه الله تعالى رياض هو مجتنى غروسها • وسما هو مجتنى اثمارها وشموسها • وبحر استقرت لديه جواهره • وسحر حلال لم تفك في عصره الا عن قلمه سواحسه • فله في فن النظم والنثر حمل الرايتين • وسبق الفايتمين • وحوز البراعتين • وسر الصناعتين • وهو مجمع البحرين فما ظل القمامة •

وله النظر الثاقب في دقائقها فمن زرقاء اليمامة • وان شاء انشاء • فله التقدم على
قدامة • وان وشى طرسا فما ابن هلال الا كالغلامه • وان اجيز لك ما عندي •
فكأنما الزمتنى أن أتجاوز حدى • لولا أن الاقرار بالرواية عن الاقران نهج
مهيب • والاعتراف بأن للكبير من بحر الصغير الاعتراف وان لم يكن مشرعه ذلك
المشع • فعم قد اجزت لك ما رويت من أنواع العلوم • وما حملته على الشرط
المعروف • وما تقدمه الاستدعاء الرقيم بخطك الكريم • مما اقتدحه زنى
السحاح • وجادت لى به السجايا الشحاح • من فنون الاداب التى باعك
فيها من باعس أمد • وسهمك فى مراميه من سهمى أسد • وأذنت لك فى
اصطلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم • والخلل الصادر عن غفلة اغتراف النقل
ووهلة اعترضت الفهم • فيما صدر عن قريحتى القريحة من النثر والنظم •

والله المسئول أن يلهنا رشدا يدلنا عليه • ودلالة تهدينا الى
ما يزلنا اليه • وهداية يسمى نورها بين أيدينا اذا وقفنا يوم المرض بين
يديه • بنيه وكرمه ان شاء الله تعالى • • •

١ - اذا كانت لنا ملاحظات على شكل ومضمون الرسائل السابقة بين الصفدى
وابن سيد الناس • فان أول ما يطالعنا هذه المرة هو شى • يتعلق
بالمضمون فموضوع الرسالة ليس شوقا • ولا عتابا • ولا شكوى • كما هو
الحال فى الرسائل السابقة • بل هو طلب اجازة بالرواية
عنه فى كل ما ألفنا وجمعه من منشور ومنظوم •

٢ - الملاحظة الثانية أن الاسلوب هو أسلوب المصر نفسه الذى يعسد
الى السجع والاقتياس وغيرهما من المحسنات اللفظية والمعنوية • الا أن
استعمال المحسنات يجى • هنا بلا تكلف ولا تعقيد مثل قول ابن سبيد
الناس :

” أيها الصدر الذي يشرح الصدر شفاه • والبدر الذي يبهر البدر
سناء •

فإن بين كلمة الصدر الأولى والصدر الثانية جناس تام ، حيث اتفقا
في اللفظ واختلفا في المعنى ، فالمقصود بالصدر الأولى صديقه الصفيدي •
مع لمح الصفة ، والمقصود بالصدر الثانية الصدر الحقيقي وهو مكان الاحساس ،
ونبض القلب في الانسان • وكذلك كلمة : البدر الذي يبهر البدر • فالمقصود
بالأولى الصفيدي ، مع لمح صفة الاشراق في البدر الحقيقي ، والمقصود بالثانية
البدر الحقيقي وهو القمر - ، فكان الجناس التام بينهما مع جمال المعنى وقوة
السبك • ومثل هذا كثير في الرسالتين •

٣ - الملاحظة الثالثة جاءت المبالغات في رسالة ابن سيد الناس على
سنة العصر - أفرط وزيادة في عبارات التعظيم - وتفريط في
عبارات التواضع •

ويعبر عن ذلك في مجال التعظيم قوله واضفا الصفيدي : فله في
في النظم والنثر حمل الرايتين ، وسبق الثابتين ، وحسوز
البراعتين • وسر الصناعتين •

وفي مجال التواضع نجده يقول عن نفسه : وأن أجيز لك ما عندي
فكأنما التزمتي أن أتجاوز حدي •

و قوله : ... من فنون الآداب التي باعك فيها من باعى أمد •
وسهمك في عراميتها من سهمى أسد •

تعليقي :

من كل ما تقدم في هذا الباب من نشر مطبوع ، ومخطوط لابن سيد
الناسي - وهو ما أمكني جمعه في هذه المدة الزمنية المحدودة - يتبين
لنا الجهد المقدر الذي شارك به ابن سيد الناس في إثراء اللغة العربية
بأبراز جواهرها ولائتها من قاع بحرها العميق .

ولعله من الغواصين الذين عناهم حافظ إبراهيم بقوله :

فهل سأألوا الغواص عن صدقاتي ؟

وعلى كل حال فقد بذل جهد طاقته وأبرز مكون مواهبه وقد راتته

الأديبة .

وان لم يكن يرتقى الى مصاف كتاب الانشاء في زمانه أمثال القاضي

الفاضل ، وابن عبد الظاهر وغيرهم ، فحسبه أنه أديب ، شاعر ، ناشر ، عالم

فقيه ، أدى دوره كأحسن ما يمكنه الأداء .

وان كان يثلب على أسلوبه الصنعة والمحسنات اللفظية والمعنوية

فهي الاطار السائد لمعظم فنون الكتابة في ذلك العصر .

:: خاتمة ::

حمدا لله الذي وفقني لاتمام هذا العمل - وما كنا لنهتدي
لولا أن هدانا الله *

وصلاة وسلاما على سيدنا رسول الله الذي أمرنا بطلب العلم ومواصلة
المعرفة : من المهد الى اللحد *

(وبعد)

أولا أود أن أتعرض في هذه الخاتمة لتلخيص ما دار في هـذه
الرسالة والتي كان موضوعها : ابن سيد الناس وأدبه - دراسة وتحليل - فهي
تتضمن على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة *

الباب الاول :

عصره وحياته *

تحدثت في الفصل الاول من هذا الباب عن الناحية السياسية في
هذا العصر وكيف كانت تسيير حياة الناس - حاكمين ومحكومين - ومن خلال
ذلك حاولت اظهار الدور الذي كان يقوم به ابن سيد الناس كعالم جليل
وأديب رقيق يجله ويقدره الافراد والحكام على السواء *

وفي الفصل الثاني من هذا الباب تحدثت عن الناحية الاجتماعية
في عصره ، وما كانت تتوج به الحياة من مشاكل اجتماعية ومضايقات فردية وجماعية
ومفاسد ملأت المجتمع جلبها بعض حكام الممالك وقاموا بحمايتها ، وان كانت
لهم اصلاحات لا تتكرر في بعض جوانب الحياة الاجتماعية ، وخصوصا في

الجانب الدينى منها ، فقد أولوا عناية كبيرة لبناء المساجد والزوايا وقاموا بالانطلاق عليها • وقد كان لابن سيد الناس صوت المسموع عندما يرى منكراً أو يحس بخطر على المجتمع •

وفي الفصل الثالث تحدث عن الناحية الثقافية في عصره ، وانتشار العلوم ، واشتغال العلماء بالبحث والتأليف والتدريس ، وعقد الحلقات لهذا الشأن في الزوايا والمساجد مما جعل طلاب العلم يؤمنونها من كل حدب وصوب ، وكان لابن سيد الناس النصيب الاوفى في هذا المجال أخذاً وعطاءً •

وفي الفصل الرابع تحدث عن نشأته وحياته وثقافته ، وأوضحته ولادته - زمانا ومكانا - وتحدثت عن آباءه وأجداده وعن موطنهم الاول وهو الاندلس ثم تحدثت عن هجرتهم الى مصر حيث كانت نهاية المطاف وألقوا عصا الترحال وولد لهم أبو الفتح بن سيد الناس ونشأ وترعرع في هذا البلد الطيب • " والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربه " واغترف من مناهل العلم والادب فكان ثمرة طيبة لهذا البلد •

وفي الفصل الخامس تحدثت عن آثاره الادبية وتناولته كتبه المخطوطة والمطبوعة وقيمت بوصفها وأخذت مقتطفات منها ، ورجعت فيما أورده من تراجم وأشعار من هذه الكتب المخطوطة الى بعض المراجع المطبوعة ، ووثقت ما وجدته فيها متقفاً ، وأشارت الى ما وجدته مختلفاً كما أشرت الى ما لم أجده مثبتاً في الكتب المطبوعة التي أمكنى الاطلاع عليها ، وأثبت ذلك في نهاية صفحات الرسالة مرقماً •

والباب الثاني :

عقدت في الفصل الاول منه مقارنة وموازنة بين قصيدتين في المدح لابن سيد الناس مع قصيدتين في نفس الغرض للبوصيري ، وتقدمت دراسة وتلخيصا لهذه القصائد مبينا أوجه التشابه في الاسلوب والمعاني وأوجه التفوق المختلفة عند كل منهما في التعبير والتصوير وما يمكن أن نعتبره استفادة من السابق لللاحق وتمييزا لشخصية أحدهما على الآخر .

والفصل الثاني من هذا الباب تناولت فيه مختارات من قصائد ابن سيد الناس في المدح ، وتعرضت لها بالتحليل والدراسة مبينا في ذلك سمات العصر وما اشتهرت به المدائح النبوية في تلك العدة من استعمال المحسنات البديعية حتى سهي بعضها : بالدبيعيات * وبينت جوانب الاشراق والابداع في هذه القصائد حسب ما ييسر عصرها ، وما يمكن أن يحسب عليها من الإسراف أحيانا في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية .

أما الباب الثالث :

وهو : نشره وخصائصه .

فقد تحدثت في الفصل الاول منه عن النشر في عصر ابن سيد الناس وأنواعه وأساليبه المتنوعة ، وذلك لانه يمثل نواحي متعددة ومتباينة من الحياة فأصبح متعدد الأغراض والانواع ، فمنه الرسائل الديوانية والرسائل الاخوانية ، والرسائل الوصفية ، والخطابة الدينية وغيرها ، واستخلصت من كل ذلك سمات ومميزات النشر في هذا العصر ، والى أي مدى تأثر ابن سيد الناس بأساليب عصره النثرية ، واتخذت هذا الفصل مدخلا على نثر ابن سيد الناس . وفي الفصل الثاني تناولت نشره المطبوع والمخطوط بالدراسة والتعليق .

وإذا كانت طبيعة الحياة تقضي بذل الجهد والعرق في سبيل

نيل المقاصد وتحصيل الآرب ، فقد بذلت جهدا وترددت على المكتبات المتعددة في هذه المدينة العامرة المنصهرة باذن الله خلال مدة تزيد على السنة بعد أن قضيت سنتين دراسيتين في هذه الجامعة العتيقة ، وفى أثناء بحثى والى فى معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية عثرت على مخطوطين أدبيين لابن سيد الناس هما :

- - منح المدح ، والمقامات الحلية ، " مصورة فى فيلم واحد " .
- - ويشرى اللبيب بذكرى الحبيب .

وتابعت البحث فوجدت له نثرا مخطوطا فى كتاب :

" الحان السواجع بين البادى والمراجع - للصفدى "

فقت بتصوير الرسائل الاخوانية الموجودة فى كتاب الحان السواجع ، كما قمت بتصوير الكتابين السابقين المخطوطين لابن سيد الناس ، وعكفت على دراسة ما وجدته فى هذه الكتب من منشور ومنظوم مع ما يهيا من غموض وعدم وضوح فى بعض الكلمات .

هذا الى جانب المعلومات التى استقيتها من بعض المراجع المطبوعة من عصره وحياته ونشأته مما جعلنى اقضى الساعات الطوال بين صفحات الكتب .

نتائج البحث :

اذا كان كل عمل يقوم به الانسان لا بد أن يصل فى نهايته الى نتيجة فان من أكبر النتائج التى توصلت اليها فى نهاية هذه الرسالة : أن تراثنا العربى يحتاج الى كثير من البحث والتقيب فى طيات الكتب المطبوعة والمخطوطة لاكتشاف بعض جوانب التفوق فى شخصياته التى لم تجده

من يسلط عليها الضوء ، وهذا ما أرجو أن تكون حقيقته هذه الرسالة
في اظهار ابن سيد الناس - الاديب - .

ومن النتائج التي توصلت اليها أيضا أن المدائح النبوية
وفن المديح في الشعر العربي بصفة عامة يحتاج الى مزيد من الدارسين
والباحثين حتى يصل الى المكانة السامية التي يجب أن يتبوها في عالم
الادب .

” وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ” .

* * *

فهرس المراجع ::

<u>اسم المؤلف</u>	<u>الطبعة</u>	<u>اسم الكتاب</u>	
على حسن		التاريخ الاسلامى	١ -
ابن تفرى	طبعة دار الكتب	النجوم الزاهرة	٢ -
بـردى	بالقاهرة		
ابن الوردى		تاريخ مصر	٣ -
ابن شاكـر الكتبى		فوات الوفيات	٤ -
ابن حجر	طبعة سنة ١٩٤٧م	الدرر الكامنة	٥ -
المقـرئى	طبعة سنة ١٣٢٦هـ	السلوك	٦ -
تقى الدين المقرئى		اغاثة الامة	٧ -
السبكى	طبعة سنة ١٩٥٨	معيد النعم ومبيد النعم	٨ -
	مطبعة دار السعادة	البداية والنهاية	٩ -
ابن كـثير	سنة ١٩٣٢م		
المقـرئى		خط المقرئى	١٠ -
ابن العماد	طبعة ١٣٥١هـ	شذرات الذهب	١١ -
السبكى	الطبعة الاولى	طبقات الشافعية	١٢ -
الادفوى	طبعة ١٩٦٦م	الطالع السعيد	١٣ -
المراكشى		الذيل والتذكرة	١٤ -
		الذيل على طبقات	١٥ -
ابن رجب		الحنابلة	
للصفدى		شرح اللامية	١٦ -

- | | |
|-----------------------|-------------------------------|
| ابن سيد الناس | ١٧ - منح المدح |
| ابن حجر | ١٨ - الاصابة في معرفة الصحابة |
| | ١٩ - الاستيعاب في معرفة |
| القرطبي | الاصحاب |
| تحقيق محمد سيد كيلاني | ٢٠ - ديوان البوصيري |
| فؤاد البستاني | ٢١ - الروائع |
| | ٢٢ - المدائح النبوية فـسـ |
| | الادب العربي |
| د * زكي مبارك | ٢٣ - ديوان البرعي |
| حافظ حسن المسعودي | ٢٤ - دلائل الاعجاز |
| عبد القاهر الجرجاني | ٢٥ - مذاهب النقد وتضايها |
| د * عبد الرحمن عثمان | ٢٦ - الحان السواجع بين |
| | البادي والمراجع |
| الصفدي | ٢٧ - بشرى اللبيب بذكرى |
| | الحيبيب |
| ابن سيد الناس | ٢٨ - المقامات المليية فـسـ |
| | الكرامات الجليلة |
| ابن سيد الناس | ٢٩ - عيون الاثر في فـسـون |
| | المغازي والشمائيل |
| | والسير |
| ابن سيد الناس | |
| حسن نجيلة | ٣٠ - ملاح من المجتمع السوداني |

:: فهرس الموضوعات ::

<u>رقم الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١	١ - المقدمة
	<u>الباب الاول :</u>
	<u>عصره وحياته</u>
٣ - ١٣	٢ - الفصل الاول : عصره السياسى
١٤ - ٣٥	٣ - الفصل الثانى : عصره الاجتماعى
٣٣ - ٥٦	٤ - الفصل الثالث : عصره الثقافى
٥٦ - ٦٨	٥ - الفصل الرابع : نشأته وحياته وثقافته
٦٩ - ١٠٣	٦ - الفصل الخامس : آثاره الاديبية
	٧ - توطئة الباب الثانى : المدائح النبوية فى عصر ابن سيد الناس
١٠٤ - ١٠٨	
	<u>الباب الثانى</u>
	<u>شعره وخصائصه</u>
	٨ - الفصل الاول : دراسة مقارنة فى تصديتين فى المدح بينه وبين البوصيرى
١١٠ - ١٤٧	٩ - الفصل الثانى : مختارات من قصائد ابن سينا الناس دراسة وتحليل
١٤٨ - ١٨١	

الباب الثالث

نشره وخصائصه

رقم الصفحة	
١٨٨ - ١٨٦	١٥ - الفصل الاول : النشر في عصره
٢١٤ - ١٨٦	١٦ - الفصل الثاني : نشره وخصائصه
٢٢٢ - ٢١٥	١٢ - الخاتمة
٢١٩ - ٢١٨	١٣ - فهرس المطبوع
٢٢١ - ٢٢٠	١٤ - فهرس المونوجرافات

* * *